الباب الثانى

فـــن السيـــرة

الفصل الأول

فـن السيرة : دراسة تاريخية عامة

مفهوم السيرة

السيرة نوع أدبى قديم وهو أولاً جزء من علم تدوين التواريخ من الناحية المنطقية ومن ناحية التسلسل الزمنى ولا تميز السيرة فى منهجها بين رجل الدولة والرجل الذى لا يلعب دوراً فى الحياة العامة[1]، والسيرة فن أقرب إلى التاريخ إذا كانت الشخصية المراد دراستها شخصية تاريخية وأقرب إلى الأدب إذا كان هدف الدراسة أديباً أو شاعراً.

---

(١) اوستن وارين ورينيه ويلك: نظرية الأدب، ترجمة محيى الدين صبحى، القاهرة، ١٩٧٢م، ص ٩٣، ٩٤.

- أطلق العرب كلمة «سيرة» على ما كُتب عن حياة الرسول ﷺ ثم اتسع المدلول الاصطلاحى لها فاطلقوها على حياة الأشخاص مثل سيرة معاوية وبنى أمية وسيرة ابن طولون وسيرة صلاح الدين الايوبى وغيرها، وليس هناك ثمة خلاف بين المدلول اللغوى لكلمة «سيرة» عن المفهوم الاصطلاحى لها فقد جاء فى القاموس المحيط للفيروز آبادى «تقول سيرّ سيرة اى جاء بأحاديث الأوائل واستار بسيرته واستن»، ويقول الزمخشرى: سايرته مسايرة وسار الوالى الرعية سيرة حسنة وهذا فى سير الأولين وعاد إلى سيرته الأولى وسار سيرة نحا منحى يقول خالد بن زهير:

- لا تغضبن من سيرة فأول راضى سيرة من يسيرها (أساس البلاغة: ٤٧٣).

وفى القرآن الكريم: ﴿قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَىٰ ﴿٢١﴾﴾ [طه: ٢١].

واستعملت كلمة «سيرة» لأول مرة فى كتاب «سيرة ابن هشام» كما جاءت بمعنى الترجمة لحياة الرسول ﷺ فى طبقات ابن سعد ثم احتوت بعد ذلك ما يسمى بالسيرة الشعبية كسيرة عنتره والزير سالم وغيرها (دائرة المعارف الإسلامية: ١٢/ ٤٣٩ - ٤٤٠). ويقول محمد عبد الغنى حسن: «هى ذلك النوع من الأنواع الأدبية الذى يتناول التعريف بحياة رجل او اكثر تعريفاً يطول او يقصر ويتعمق او يبدو على السطح تبعاً لحالة العصر الذى كتبت فيه الترجمة وتبعاً لثقافة المترجم ومدى قدرته على رسم صورة كاملة واضحة ودقيقة من مجموع المعارف والمعلومات التى تجمعت لديه عن المترجم له».

(محمد عبد الغنى حسن: التراجم والسير، الطبعة الثالثة، دار المعارف، القاهرة، ص ٩).

والسيرة فى رأى إحسان عباس «فن لا بمقدار صلتها بالخيال، وإنما لأنها تقوم على خطة او رسم او بناء وعلى ذلك فهى ليست من الأدب المستمد من الخيال، بل هى أدب تفسيرى، وهذا النوع من الأدب كالأدب الذى يخلق خلقاً، من حيث إن صاحبه معنى بغاية محدودة تهديه فى اختياره وترتيبه للحقائق وهو كالروائى والقاص أيضاً، يحاول ان يكشف عن الصراع بين بطل سيرته والطبيعة، وصراعه مع الناس الآخرين ومع نفسه وهو يحاول أن ينقل إلى القراء حقيقة ذات قبول عام ولكنه لا يستطيع أن يحكم خياله فى أجزائها، بدلاً من أن يقف موقف الخلاف تراه يقف موقف المستكشف المفسر لأشياء وأشخاص وجدوا فى الحقيقة» (احسان عباس: فن السيرة. ط٥، دار الشروق، عمان، ١٩٨٨م ص: ٨٤، ٨٥). والسيرة «نوع من الأدب يجمع بين التحرى التاريخى والإيقاع القصصى ويراد به درس حياة فرد من الأفراد ورسم صورة دقيقة لشخصه ولا يكسب العمل الأدبى صفة السيرة بمعناها الحقيقى إلا إذا كان تفسيراً للحياة =

وهى أى السيرة صيغة معقدة، فهى من جهة تشبه القصة الدرامية لأن موضوعها هو الحياة الإنسانية.

و«السيرة فرع من فروع الأدب»[١]، و«تاريخ مدون لحياة الأشخاص والجنس الأدبى لقص ترجمان الأشخاص»[٢].

ويقول دافيد سيسل David Cecil «إنها ليست صيغة مهمة فى الفن الأدبى، لكن لها جاذبيتها الخاصة بالنسبة لدارسى الأدب الحديث، وذلك لأنها الصيغة الوحيدة الحديثة»[٣]، و«السيرة فرع من علم النفس التطبيقى»[٤].

ويعرّف اندريه موروا Maurois السيرة بأنها: «لا يمكن أن تكون إلا فناً»، وترى فرجينيا وولف V. Woolf «أنها ليست فناً ولا علماً إنما هى نوع من الصنعة الراقية وهى خادم للحقيقة والصراحة والنزاهة وهى الآلهة الثلاثة التى ترعى السيرة وتقف عندها» ويصفها ليتون ستراتشى L. Strachey بأنها: «أدق وأرق الفنون طراً»[٥].

* السيرة والترجمة:

وهناك نوع من التداخل فى المعنى والمدلول لكلمتى «سيرة» و«ترجمة»، وقد يؤديان نفس المفهوم ويستعملان فى نفس الوقت لنوع واحد من الدراسة، مما أوجد بعض اللبس فى الأذهان إلا أن كلمة «سيرة» فى التراث الإسلامى أقدم فى الاستعمال من كلمة «ترجمة».

ويقول محمد عبد الغنى حسن: «ليس فى الفروق اللغوية ما يبين الفرق بينهما على

= الشخصية فى جوهرها التاريخى، فهى ليست مجرد أخبار تاريخية ولا هى مجرد تحليلات نفسية اجتماعية (أنيس المقدسى: الفنون الأدبية وأعلامها، دار الكتاب العربى، ١٩٦٣، ص ٥٤٧ : ٥٥١).

وهناك عدة تعريفات للسيرة هى: «المؤلف الروائى الذى يسجل بوعى وفنية الحدث ويعيد إلى الحياة وجود شخصية إنسانية».

Encyclopeadia Britannica vol: 3 "Biography". Irabtuce Nadel: Biograhpy, Fiction, Fact and Form, St. Martin's Press. New York, 1984, P. 13 : 15.

(١) Oxford dictionary: Biography.

(٢) مجدى وهبة: معجم مصطلحات الأدب، بيروت، ١٩٧٤م، ص ٦٢.

(٣) David Cecil: An thologhy of Modern Biography: P. 15.

(٤) Muzzy: Nature of Biography. P: 111.

(٥) ليون أدل: فن السيرة الأدبية: ترجمة صدقى خطاب: ١٧ : ٢٤.

وجه التحديد، إلا أن الاصطلاح والاستعمال هما صاحبا الفتوى فى هذا، فقد جرت عادة المؤرخين أن يسموا الترجمة بهذا الاسم حين لا يطول نفس الكاتب فيها، فإذا ما طال النفس واتسعت الترجمة سميت سيرة»[١].

وكلمة سيرة فى التراث العربى أقدم فى الاستعمال من كلمة ترجمة، من حيث مدلولها فى تتبع تاريخ حياة شخص من الأشخاص، فالأولى استعملها «محمد بن اسحق» فى تاريخ حياة الرسول، وبقى هذا المدلول حتى القرن الرابع الهجرى، حيث كتب ابن الداية سيرة ابن طولون فتطور المدلول من الخاص إلى العام، والمعاجم العربية القديمة تغفل استعمال كلمة ترجمة للدلالة على تاريخ الحياة، ولكن المعاجم المعاصرة تستخدمها بهذا المعنى، ولعل الاستعمال وحده الذى فرق بين الكلمتين فى المدلول حين استعملت «سيرة» لتواريخ الحياة المسهبة وترجمة «للتواريخ الموجزة»[٢].

* السيرة العامة والسيرة الذاتية:

وتنقسم السيرة إلى نوعين هما: السيرة العامة أو الغيرية، وهى ما يكتبه أديب أو كاتب من ترجمة لحياة شخص ما عظيماً كان أو وضيعاً، والسيرة الذاتية أو الترجمة الذاتية وهو ما يكتبه الأديب بقلمه عن حياته، والسيرة الذاتية كما جاء فى دائرة المعارف البريطانية: «نوع من الأنواع الأدبية تقوم على خصائص معينة وينظر فيها إلى المقالات الشخصية واليوميات والرحلات والقصة الذاتية، إنها بوضوح يجب أن تكتب بواسطة الشخص نفسه لا عن كتابات خيالية تؤخذ من مؤرخين محترفين، ومن الأفضل أن ترجع الترجمة الذاتية إلى الكتابات التى تتركز بصفة أساسية على النفس أكثر من ارتكازها على الحوادث الخارجية»[٣].

والسيرة فى تكوينها الفنى تنقسم إلى قسمين: «سيرة غيرية وسيرة ذاتية، وإذا كان الاستعمال قد درج على إطلاق كلمة «سيرة» Biography للدلالة على «السيرة الغيرية» التى يكتبها شخص عن آخر تميزا لها عن السيرة الذاتية Autobiography وهى التى يكتبها المرء عن نفسه، فقد ذهب بعضهم إلى أنه لا فرق بين السيرتين فى الغاية والشكل والمضمون سوى أن السيرة الذاتية تكتب بصيغة المتكلم بينما تكتب الأخرى

---

(١) محمد عبد الغنى حسن: التراجم والسير: ٢٨.

(٢) ماهر حسن فهمى: السيرة تاريخ وفن: ٣.

(٣) Encyclopeadia Britanica: Vol: 2.

بصيغة الغائب »[١].

وكلما كانت الترجمة – فى قسميها الذاتى والغيرى: «أكثر أناقة وعناية بالثوب البلاغى الذى تلف فيه كانت أقرب إلى الأدب منها إلى التاريخ، إلا أن الإسراف فى الصورة الأدبية التى يعرضها المترجم والمبالغة فى الفن الأدبى والروائى الذى يضفيه المترجم على الشخصية التى يترجم لها قد يبعده كثيراً عن الحقيقة والواقع الذى يجب أن يهدف إليه والذى لا يجب أن يضيع لاعتبار يتعلق بزخرف العبارة أكثر مما يتصل بلب الموضوع»[٢].

* السيرة والتاريخ:

يوجد بين السيرة والتاريخ صلات قوية وتداخل فى الأنواع الأدبية، ويرى حسين فوزى النجار: «أن السيرة باب من أبواب التاريخ والسيرة ليست إلا حياة أفراد قاموا بأحداث تاريخية[٣]، وقد اختلف النقاد ومؤرخو الأدب فى إثبات هذه العلاقة بين السيرة والتاريخ أو نفيها ففى حين نجد جماعة من النقاد يؤكدون على عمق هذه العلاقة نجد جماعة أخرى ترفض وجودها من البداية، وفيما يلى استعراض لآراء الفريقين:

اتفق كل من J. A. Cuddon و Shipley فى معجميهما على أن «فن التراجم أحد فروع التاريخ ويعرف دريدن Dryden هذا الفن بأنه: «التاريخ الذاتى لحياة الأشخاص»، وقد أصبح فن السيرة كشكل أدبى أكثر شعبية منذ النصف الثانى من القرن السابع عشر وكان نادراً قبل هذا التاريخ»[٤].

ويرى صاحبا نظرية الأدب أن السيرة كانت فيما مضى تسجيلاً للأحداث والأعمال المتصلة بالملوك عند المصريين والصينين والآشوريين، وكانت ذات صلة وثيقة بالتاريخ، ومن ثم رآها بعضهم نوعاً أدبياً قديماً وجزءاً من تدوين التاريخ من حيث الناحية المنطقية والتسلسل الزمنى[٥].

---

(١) إحسان عباس: فن السيرة: ص ١٠٢.

(٢) محمد عبد الغنى حسن: التراجم والسير: ٩.

(٣) حسين فوزى النجار: التاريخ والسير ٥.

(٤) J. A. Cuddon, Adictionary of Literary terms. New York 1976, P. 79 : 81.

- Shipley, Dictionary of World Literary terms, London, 1955, P, 39 : 14.

(٥) أوستن وارين ورينيه ويلك: نظرية الأدب: ٩٣.

وللتاريخ فروع عدة والسيرة أهم تلك الفروع، وهذا الفرع عبارة عن قصة تتناول حياة شخص من الناس، وحينما يكون هذا الشخص مثل قيصر أو لويس الرابع عشر بمعنى أن يكون له تأثير عظيم على مصير الإنسانية فإن تاريخ حياته يعتبر جزءاً من التاريخ بمعناه الصحيح إذ إن المؤرخ حينما يقص أعمال هؤلاء الأشخاص وما كان يصدر منهم يجد نفسه مضطراً لأن يرسم صورة للشعوب التى كان يحكمها أولئك الأشخاص، مثال ذلك: حياة مشاهير الرجال للمؤرخ بلوتارك، وحياة القياصرة الاثنى عشر للمؤرخ سويتون.

وفيما مضى كانوا يتخيرون أبطالاً مغمورين كقسيس بسيط من القرى وكأحد رجال القضاء وكجندى من رجال الجيش، وفى مثل هذه الموضوعات يندر التحدث عن الحوادث السياسية والاجتماعية ولو وجدت فرصة يكتفى بمجرد الإشارة إليها، وقد يأخذ هذا النوع من التاريخ فى بعض الأحيان صورة إفضاء بسر أو اعترافات حيث يشرح لنا نفس الكاتب مواطن الزهو والشرف بالنسبة للشخصية(١).

كما أن التراجم فن حديث من فنون الأدب انفصل عن علم التاريخ ودخل عالم الأدب من باب الطاقة الشعورية التى يبثها الأديب فى موضوعه، والقيم الفنية التى يضمنها تعبيره، والتراجم على هذا الوضع تشمل العنصرين الأساسيين للعمل الأدبى «التجربة الشعورية» و«العبارة الموحية عن هذه التجربة»، فإن خلت الترجمة من هذين العنصرين أو من أحدهما استحالت سيرة أو تاريخاً بعيداً عن عالم الأدب(٢).

ومع هذا فالسيرة قصة تاريخية لا تشذ أبداً عما يقيد التاريخ من حقائق تعتمد على الوثائق والمدونات والأسانيد القاطعة البعيدة عن الكذب والافتراء، إلا أنها قصة تتعلق بحياة إنسان فرد ترك من الأثر فى الحياة ما جذب إليه التاريخ وأوقفه على بابه، وهى أحفل من التاريخ العام بالعواطف الزاخرة الجياشة والأحاسيس النابضة لأنها تعرض من سيرة الفرد لجوانب حياته المختلفة حتى تتجلى مقومات شخصيته وتبرز معالم حياته لتفصح عن سر نبوغه وتفرده إذ لا تحفل السير إلا بكل نابغة فريد(٣)، والسير كالتاريخ لا

---

(١) حسن عون: نظرية الأنواع الأدبية: منشأة المعارف، الإسكندرية، ١٩٥٨م، ص ٥٦، ٥٧.

(٢) سيد قطب: النقد الأدبى أصوله ومناهجه: الطبعة السادسة، دار الشروق، القاهرة، ١٩٩٠م، ص ٩٠: ٩٣.

(٣) حسين فوزى النجار: التاريخ والسير: ٦١.

تتكرر ولا تعيد نفسها أبداً وإن تشابهت بعض السير كما تتشابه بعض المواقف التاريخية، إلا أنها لا يمكن أن تتكرر بنفس السمت والأسلوب، بل إنها لتفوق التاريخ فى هذا، وبقدر ما تختلف أشكال الإنسان وصوره بقدر ما تختلف السير حتى وإن عملت فى ميدان واحد من ميادين الحياة وفى زمان ومكان واحدين(١)، وقد نشأ فن السيرة فى حضن التاريخ وظل مختلطاً به قروناً عدة، ثم استقل عنه وتفرع إلى جملة فروع، ومع ذلك ليس من السهل أن يتخلص من التاريخ بمعناه المجرد من حيث هو تراكم زمنى وسلسلة من الوقائع والأحداث وليس من الممكن أن تتحرر السيرة من الإطار الزمنى ودوره فى الحياة ولا التعامل مع الوقائع والأحداث العامة.

ففى أحضان التاريخ إذن نشأت السيرة وترعرعت واتخذت سمتاً واضحاً، وتأثرت بمفهومات الناس عنه على مر العصور، وتشكلت بحسب تلك المفهومات فكانت تسجيلاً للأعمال والأحداث والحروب المتصلة بالملوك عند الصينيين والمصريين والآشوريين وكانت تفسيراً لبعض المبادئ السياسية عند فلوطارخس فى كتابه عن عظماء اليونان والرومان(٢)، على أن السيرة تتصل بالتاريخ اتصالاً مباشراً خاصة لو أنها تناولت حياة أشخاص كان لهم دور بارز وقيادى فى تحريك أحداث الشعوب والأمم وكان لأعمالهم تأثير فى قطاع عريض من الناس.

وإذا كان التنقيب وراء الحقيقة ومحاولة جلاء غموضها هو عمل التاريخ فإن عمل السيرة يبتغى هذه الحقيقة فى النفس البشرية، فى محاولة لكشف مواهب هذه النفس فى ظروف تلك الحياة التى عاشتها والتأثير الذى تركته فيما حولها، والتاريخ عرض وقائع أما السير فهى إعادة حياة إنسان(٣).

ورفض كولن وود Colling Wood اعتبار السيرة فرعاً من التاريخ لافتقادها القاعدة التى يقوم عليها التاريخ فحدودها الأحداث البيولوجية الواقعة بين ولادة الشخص وموته من طفولة ونضج وأمراض فهى صورة للوجود الحيوانى الجسمانى مرتبطاً بالكثير من العواطف الإنسانية، وليس ذلك كله تاريخاً(٤).

---

(١) المرجع السابق: ١٠٢، ١٠٣.

(٢) إحسان عباس: فن السيرة: ١٠، ١١.

(٣) رشيده مهران: طه حسين بين السيرة والترجمة الذاتية: ٢٠.

(٤) إحسان عباس: فن السيرة: ١١.

* كاتب السيرة:

يعد كاتب السيرة أحد الحلقات الهامة فى خلق سيرة جيدة، لذا هناك عدة سمات يجب أن يتسم بها كاتب السيرة الذى يتناول فناً ذا طبيعة خاصة يتطلب منه حساسية ودقة وفهماً لمغزى الأحداث، ولابد لكاتب السيرة من يقظة ذهنية مستمرة مشفوعة بإرهاف خاص من التميز والحدث والترجيح، ذلك لأن مهمة كاتب السيرة كمهمة اى فنان بعد أن تصبح المادة جاهزة لديه.

مهمته أن يقرب ويبعد ويستبقى ويرفض وأن يضع ميزان الاختيار أمامه فى كل شىء يستحق التسجيل، وليس يكفيه أن يكون له ما للمؤرخ من قوة ناقدة تعرف اين هو موطن الضعف وفرق الرواية المغرضة من الرواية الصحيحة، بل لابد من إدراك ذوقى دقيق يعرف به ما يحسن أن يبقيه أو ينفيه من الصحيح نفسه، وكاتب السيرة أديب فنان كالشاعر والقصصى فى طريقة العرض والبناء إلا انه لا يخلق الشخصيات من خياله ولا يعتمد الشخصية الأسطورة ككاتب المسرحية، ومن ثم كان فى طريقته أقرب إلى المعمارى وهو كالمؤرخ فى قوة النقد وكالعالم فى القدرة على التصنيف والتقسيم(١)، وقد أسهب ليون أدل فى وصف كاتب السيرة فيقول: إننى على يقين من أنه لو قام أحد بدراسة سيكولوجية لكتّاب السير لوجد أنهم عادة قد دفعتهم أسباب شخصية عميقة إلى كتابة هذه السير وهى أسباب لا تتصل دائماً بالموضوعية والبحث عن الحقيقة، وقد قدم فرويد فى سيره للنوازع الباطنية عند الإنسان تحذيراً عميقاً لكاتب السيرة الذى ينسى نفسه كلية ولا يشرع فى كتابه حياة بطله وإنما يكتبها من جديد، وقد وُصف هؤلاء الكتاب بانهم يتسمرون عند أبطالهم بطريقة غريبة وأعتقد أن ليتون ستراتشى كان يفكر فى مثل هذه الأخطاء عندما تحدث عن حاجة كاتب السيرة إلى أن يحاول معرفة نفسه قبل أن يسعى إلى معرفة حياة إنسان آخر، وهذا يقودنا إلى مأزق حرج، إذ أن هناك دليلاً على أن سعيه إلى معرفة حياة هذا الإنسان الآخر لكى يعرف نفسه معرفة أفضل، وهكذا تصبح معضلة كاتب السيرة مزدوجة إذ عليه أن يقوم حياة إنسان آخر بأن يصبح ذلك الإنسان كما أن عليه أن يحرص كثيراً على أن يصوغ فى أثناء عملية كتابة السيرة صورة بطلها على غرار صورته هو وهذه فى الواقع هى العملية الدقيقة(٢).

---

(١) إحسان عباس: فن السيرة، ٧٨ : ٨٠.

(٢) ليون أدل: فن السيرة الأدبية، ٢٩ : ٣١. =

وعمل كاتب السيرة هو «أن يحصى ناتج القوى التى تتكون من الشخصية ومشاكل العصر الذى عاشت فيه، ولا ينبغى أيضاً أن يصف الرجل نفسه أو شخصيته أو أخلاقه أو تفرده[١].

وقد وصف ليتون ستراتشى فن السيرة ذات مرة بأنه أدق وأرق فنون الكتابة طراً وأعتقد أن مصدر هذه الدقة كون كاتب السيرة يسعى إلى أن يبعث الحياة فيما تبقى من مادة جامدة تختلف وراء عبور إنسان ما لهذه الحياة الدنيا فيسعى إلى أن يسترد ما كان بمثابة الروح والجسد والمشاعر ويصوغها على صورة ذلك الإنسان الغابر ومصدر الدقة أن عملية السيرة هى بطبيعتها عملية تتسم بالإنسانية والتهذيب والمدنية ولما كانت هذه العملية تجمع بين الدقة والرقة فإنها تشتمل على كل ما فى الحياة من غموض ومتناقضات[٢]، وتستمد السيرة قوتها من وجهة نظر الكاتب، حيث إنه إذا كانت القدرة على جمع الحقائق هى المهمة الأولى لكاتب السيرة، والقدرة على تشكيلها هى المهمة الثانية فإن وجهة نظر الكاتب لها قيمتها فى منح السيرة بعداً فكرياً وقيمة تزيد خصوبتها وتكشف كل زواياها وتمنحها قوة الاقناع والتأثير.

وإذا كنا قد ذكرنا أهم الصفات التى يجب أن يتسم بها كاتب السيرة فإن علينا أن نذكره بالعيوب والأخطاء التى يمكن أن يقع فيها بقصد أو بدون قصد، إلا أن الخطأ الشائع لكاتب السيرة يكمن فى رغبته إما فى تمجيد الشخصية التى يتناولها وإما فى محاولة إبراز الجانب الخلقى لهذه الشخصية، ولقد تساءل أحد كتاب السيرة الألمان المعروفين قائلاً: لماذا نشقى أنفسنا بالكتابة عن الشخصيات إذا لم يكن الهدف من العملية هو إعطاء المثل أو إيضاح المحاذير والإجابة على هذا السؤال هو أن المخلوقات الآدمية موجبة للاهتمام إكراماً لها، وليس لأنها أمثلة لأمور معينة أو لأنها محاذير من الوقوع فى أمور أخرى، ويجب أن تتحرر السيرة تماماً من الوعظ أو تعمد تهذيب الأخلاق، وكل ما هو دخيل على غرض سرد قصة أو رسم شخصية فإنه يفسد فن كتابة

= - Irabruce Nadel: Diography, Fiction, Fact and form. P. 68 : 74.

- Muzzy: The Nature of Biography: P. 8.

(١) ليون أدل: فن السيرة الأدبية: ١٧.

(٢) ماهر حسن فهمى: السيرة تاريخ وفن: ٧٥.

- Irabruce Nadel: Biography, Fiction, Fact and from, P. 75 : 83.

السيرة[١].

ومن حق كاتب السيرة أن يعرض نفسه على الناس فى أية صورة ولكن ليس من حقه أن يعرض الآخرين على الناس فى الصورة التى يختارها لهم، صحيح أن كاتب السيرة الأدبية إذا أراد أن ينصف أدب من يكتب عنه، وجب عليه أن يلم بكل ظروف حياته من طفولته إلى نهايته وأن يدرس جميع العادات الجسدية والنفسية والاجتماعية، ولكن ليس لتاريخ الأدب أن يخلو من أدب التاريخ وليس من أدب التاريخ أن يتناول كاتب السيرة ما يدق من تفاصيل الحياة الخاصة للمترجم له وهو واقع تحت تأثير نفسى أو جسدى خاص، ثم إن هذا التناول يجب أن يجئ بطريقة مهذبة وفى أسلوب عف ولاسيما إذا كان المترجم له قد رحل عن هذه الدنيا، فلم يعد يملك الدفاع عن نفسه، ولا يجوز لكاتب السيرة أن يلقى الاتهام بطريقة القطع، إلا إذا كانت بين يديه وثيقة يعرضها على القراء، ففى حالة كحالة توماس كارليل صاحب كتاب «الأبطال» مثلاً ما كان يجوز لفرانك هاريس أن يجرد السيدة جين كارليل من ثيابها أمام الناس على مدى الأجيال[٢].

ويُعد الحصول على مادة السيرة من الأمور الصعبة والشاقة التى تقابل كاتب السيرة فعليه أن يتحرى الصدق فى جمعها ويكابد المشاق فى سبيل الحصول عليها من مصادرها الأصلية وهى التى يعتمد عليها فى رسم الإطار الخارجى للسيرة، وترى رشيدة مهران أن الوثائق التى يعتمد عليها كاتب السيرة تكون مذكرات أو رسائل أو روايات من الأحياء وشواهد تجمع، وأحياناً تعوزه الدلائل فى أدق المواقف أو يقع بين التناقض فيما لديه أو قلته فتصبح كتابة السيرة شيئاً عسيراً[٣]، لأنه من الطبيعى أن تكون كتابة حياة أديب نوعاً من الفضول الشائن ومن اقتحام الحياة الخاصة إن لم تهدف إلى إضاءة الجوانب السحرية والغامضة فى عملية الإبداع[٤].

وأخيراً يستطيع كاتب السيرة أن ينتقى مادته المستعملة من الموضوعات التى يكتبها أصحابها أنفسهم وبصفة خاصة اليوميات والخطابات والأرشيف الخاص به وذاكرة

---

(١) رشيدة مهران: طه حسين بين السيرة والترجمة الذاتية: ٢٧، ٢٨.

(٢) صالح جودت: كاتب السيرة، مقال بمجلة الهلال، ديسمبر ١٩٦٣م ص ٥٦ : ٥٨.

(٣) رشيدة مهران: المرجع السابق، ٢٩، ٣٠.

(٤) ليون أدل: فن السيرة الأدبية: ٤٧ - ٤٩.

الكاتب والمعاصرين له علاوة على الصور والرسومات والوصايا.

بناء السيرة:

يعتمد بناء كيان السيرة على أسس فنية محكمة يراعى فيها كاتب السيرة الناحية القيمية للزمان والمكان ويستعين بعلوم حديثة كعلم النفس وعلم الوراثة لإحكام وحدة البناء وتحليل الشخصية وتعميق الصراع النفسى، **وهناك مدارس عديدة لكل منها أسلوبها ومنهجها فى بناء السيرة وهى:**

١ - مدرسة ذات طابع أكاديمى تقوم دراستها على التشريع والتحليل والتدقيق فى الاستنتاج بعد عرض المتناقض المضطرب من الروايات لاستخلاص الحقائق منها.

٢ - المدرسة الثانية وهى قديمة فى طابعها لا تؤمن بالدراسة النقدية قدر إيمانها بما قاله القدماء، لذلك كانت عنايتها بالتراجم لا يتجاوز إعادة ما كُتب من قبل فى بيان إنشائى مفكك وحماسة مفتعلة.

٣ - المدرسة الثالثة هى التى تنتحل السيرة الأدبية أو شكلاً مقارباً لها.

٤ - المدرسة الرابعة الجامعة لأصحاب هذا الاتجاه هى عنايتهم بالفرد وإنسانيته على أساس من الجو التاريخى فى تطور حياته وشخصيته وتكاملها وكل ما خرج عن هذا النطاق ابتعد عما نفهم من معنى السيرة الفنية أو السيرة الأدبية(١).

ويرى ليون أدل أن هناك ثلاث أفكار هندسية، على الأقل يمكن أن نجدها فى بناء السيرة، فأولها وأشيعها السيرة التقليدية وهى وثيقة عمل متكامل يرتب فيه كاتبه مادته كما فعل «بوزويك»، بحيث يجعل صوت صاحبه مسموعاً، أما النوع الثانى من السيّر فهو خلق لفظى لشىء قريب من صورة الرسام وتمتاز الصورة هنا بأنها أكثر تحديداً، فقد رسمت بعناية وأحيطت بإطار.

وفى النوع الثالث الذى شاع فى أيامنا نجد أن المواد قد صهرت كلها وجاء كاتب السيرة لسردها وهو العالم بكل شىء، ونجد فى هذا العمل تصور كاتب السيرة لصاحبه إلى حد كبير، وقد يسمى النوع الأول من كتابة السيرة بأنه تاريخى والثانى تصويرى والثالث قصصى تصويرى أو روائى(٢).

---

(١) إحسان عباس: فن السيرة: ٥٤، ٥٥.

(٢) ليون أدل: فن السيرة ١٤٥.

- Irabruce Nadel: Biography, Fiction, Fact and form, P. 19 : 22.

* السيرة عند الأوربيين:

نشأ أدب السيّر والتراجم فى أوربا قبل أن ينشأ عندنا وكانت أولى ثماره وأقدمها كتاب «قصص حياة متماثلة» الذى ألفه المؤرخ اليونانى بلوتارك (٥٠ - ١٢٥ تقريباً)، وبه أصبح أشهر أديب اغريقى فى عصر النهضة الأوربية، فقد ترجم إلى لغات العصر الأساسية وأثر تأثيراً كبيراً فى مجرى الأدب والسير، وحين نقله «توماس نورث» عن الفرنسية إلى الإنجليزية ونشره فى لندن عام ١٥٧٩م اختصر عنوانه إلى «قصص حياة» أو حيوات بمعنى أدق ثم نشر الكاردينال مورث «حياة ريتشارد الثالث» متأثراً بنموذج بلوتارك فى اللاتينية[١].

وكان أول ما ظهر فى السيرة الإنجليزية موقوفاً على حياة القديسين، وفى القرن السادس عشر يظهر نموذجان شائقان لكتابة السيّر فقد كتب وليم روبير (William Roper ١٤٩٦ - ١٥٧٨م)، حياة حماه السير توماس مور Tomas more، غير أن الكتابة كانت مغرضة وغير أمينة، وذلك لمحاولته طمس الجوانب الكريهة لشخصية حميه، لكن سرد القصة كان جميلاً ويحتوى على بعض النوادر التى تزيد الإيضاح أما النموذج الثانى فقد قدمه جورج كافندس George Cavebdish، وهو عبارة عن حياة الكاردينال وولزى Wolsey، وتعتبر أول ما أبدع الإنجليز من كتابة موضوعية فى السيّر رغم أنها شوهت بتصميم الكاتب على أن يجعل الشخصية تصور فكره[٢].

وكانت أسوأ المراحل فى تاريخ السيرة الأوربية يوم أن تسلمها رجال الدين فتحولوا بها إلى إبراز كرامات القديسين وخوارق أعمالهم وجعلوها نماذج ليس فيها من حياة الشخص المترجم أو تجاربه الإنسانية إلا القليل، واتجهوا بها نحو الوعظ والتذكير وسخروها للعاطفة الدينية، وهذا وهن كبير يصيب السيرة لأنها من أقرب الأشكال الأدبية صلة بالذهن فإذا سيطرت عليها العاطفة عصفت بما فيها من صدق، وإذا تحكمت

---

(١) على شلش: فن السيرة الذى أهملناه، مقال بمجلة العربى، مايو ١٩٨٩م ص ١١٠، ١١١، ثم يقول: «توالت السيّر والتراجم ابتداء من «هنرى الثامن»، لفرانس بيكون عام ١٩٢١م إلى «حياة وليم بليك» لمونا ويلسون عام ١٩٢٧م مروراً بعشرات السير المتشابهة العنوان منها حياة جونسون لجيمس بوزويل عام ١٧٩١م، وقد تغير المفهوم مع بداية العصر الحديث فى القرن الثامن عشر، ولم تعد حياة القديسين والملوك والأبطال وحدها فى الميدان، بل بدأ البحث فى أغوار الشخصية والرجوع إلى آثارها الخارجية مثل الخطابات واليوميات والمذكرات والوثائق».

(٢) رشيدة مهران: طه حسين بين السيرة والترجمة الذاتية: ٥٠، ٥١.

فيها العاطفة الدينية – بوجه خاص – أفسدت عليها الأسس التى تعتمد عليها(١).

وكانت السيرة صورة جديدة للتجربة والاستكشاف، حتى لقد زاد الميل إلى كتابتها بدقة وأمانة وحيوية، ومن ثم يمكن أن يعد القرن الثامن عشر «عصر النهضة» فى تاريخ السيرة الإنجليزية(٢)، ويُعد القرن الثامن عشر هو عصر الدكتور جونسون Dr. Johnson ورفيقه بوزول Boswell لأن كلا الرجلين قد أديا لفن السيرة يداً لا تنكر، وواحدهما لا يذكر فى تاريخ الأدب منفصلاً عن الآخر، فعن طريق جونسون ذكر الناس بوزول كاتب سيرته، وعن طريق بوزول بقيت صورة جونسون «الإنسان» حية على الزمان، وقد وضع جونسون فى «سير الشعراء» المثال الذى يحتذى فى كتابة السيرة بانياكل ذلك على أساس من البيان المحكم الرصين.

أما بوزول فقد قام بكتابة سيرة حياة جونسون The Life of Samuel Johnson، وكان بوزول صريحاً فأزعجت هذه الصراحة الكثير وضج الناس ينتقدون تلك الصراحة التى أخذت تستعلن فى كتاب السيرة لأنها تحطم المثال وتشوه الأنموذج وتسئ إلى الأخلاق وترسم القدوة السيئة، وبعد هذه النكسة أصبح البعث الجديد فى حياة السيّر من نصيب من يثور على هذا الاتجاه الفيكتورى ويحطم هذه الأغلال الثقيلة، ووقع القدح الفائز فى يدلينتون ستراتشى Lytton Strachey الذى اضطلع بجهد مزدوج وعاد إلى مقياس الدكتور جونسون فى الصراحة والصدق(٣).

وظهرت منذ ذلك الحين روائع فى الترجمة مثل: «سيرة جليج» لويلنجتون، و«حياة ولتر سكوت» للوكهارت، و«حياة شارلوت برونتى» لمسز جاسكل، و«الملكة فيكتوريا» للمؤرخ ستراتشى الذى يعد أبا التراجم الحديثة والذى جمع فى طريقته بين التفسير التاريخى واللمسة الفنية، و«بسمارك» و«نابليون» لاميل لدفيح، و«حياة شيلى» و«بيرون» لأندريه موروا، وله فى كتابة التراجم محاضرات ألقاها فى جامعة كمبريدج سنة ١٩٢٨م، وجمعت فى كتاب لا يستغنى عنه مؤرخ للتراجم والسير فى العصر الحديث(٤).

---

(١) Nicolson, The Development of English Biography, P. 111.

(٢) Stauffer, D. The Art of Biography in Eighteem Century. England. 19.

(٣) إحسان عباس: فن السيرة: ٣٨، ٤٤، ٤٥.

أيضاً: - Samuel Johnson, the lives of the English Poets, Vol: 1, P. 1, 2.

(٤) محمد عبد الغنى حسن: التراجم والسير: ١٣.

السيرة عند العرب

لم يكن للعرب قبل مبعث الرسول من مادة التاريخ إلا ما توارثوه بالرواية مما كان شائعاً بينهم من أخبار الجاهلية الأولى، كحديثهم عن آبائهم وأجدادهم وأنسابهم وما فى حياة الآباء والأجداد من قصص فيها البطولة والكرم والوفاء، ثم حديثهم عن البيت وزمزم وجرهم وما كان من أمرها، ثم ما كان من البيوتات مما قامت فيه الذاكرة مقام الكتاب واللسان مقام القلم يعى الناس عنه ويحفظون، ثم يؤدون، ثم ظهر مورد جديد بظهور النبى ﷺ وظهور دعوته وهو أحاديث الصحابة والتابعين عن ولادته للتاريخ أولاً ثم للسيرة ثانياً، ولم يدون فى تاريخ العرب أو السيرة شيء، إلى أن مضت أيام الخلفاء، وفى أيام معاوية أحب أن يدون فى التاريخ كتاباً فاستقدم عبيد بن شريه الجرهمى من صنعاء فكتب له كتاب الملوك وأخبار الماضين، ثم بدأ الاهتمام بسيرة الرسول بعد أن منعوا من تدوين أحاديثه إلى أيام عمر بن عبد العزيز مخافة أن يختلط الحديث بالقرآن، فجاء عروة بن الزبير بن العوام الفقيه المحدث وروى الكثير من الأخبار والأحاديث عن النبى وحياة صدر الإسلام، ونجد أن إسحاق والواقدى[1] والطبرى أكثروا من الأخذ عنه ولاسيما فيما يتعلق بالهجرة إلى الحبشة والمدينة وغزوة بدر، وتوفى عروة عام ٩٢ هـ تقريباً، ثم جاء إبان بن عثمان بن عفان المتوفى سنة ١٠٥ هـ، فألف فى السيرة صحفاً جمع فيها أحاديث حياة الرسول، ثم وهب بن منبه المتوفى سنة ١١٠ هـ، ومنهم من عاش حتى أوشك أن يدرك منتصف القرن الثانى كموسى بن عقبة المتوفى سنة ١٤١ هـ، ثم معمر بن راشد المتوفى سنة ١٥٠ هـ، ثم شيخ رجال السيرة محمد بن إسحاق المتوفى سنة ١٥٢ هـ، وجاء بعد هؤلاء زياد البكائى المتوفى سنة ١٨٣ هـ والواقدى صاحب المغازى المتوفى سنة ١٢٠٧ هـ، ومحمد بن سعد صاحب الطبقات الكبرى المتوفى سنة ٣٣٠ هـ، وكان ابن هشام المتوفى ٢١٨ هـ هو الرجل الذى انتهت إليه سيرة ابن إسحاق فعرفت به وشاع ذكره بها[2].

---

(١) الواقدى: محمد بن عمر بن واقد المتوفى ٢٠٧ هـ مولاهم الواقدى المدنى القاضى صاحب التصانيف واحد أوعية العلم على ضعفه، قال أحمد بن حنبل هو كذاب يقلب الأحاديث يلقى حديث ابن أخى الزهرى على معمر ونحو ذا قال ابن معين: ليس بثقة، وقال مرة: لا يكتب حديثه، وقال البخارى وأبو حاتم متروك، وقال النسائى: يضع الحديث، وقال الدارقطنى: فيه ضعيف، وقال ابن عدى: أحاديثه غير محفوظة والبلاء منه.

(الذهبى: ميزان الاعتدال فى نقد الرجال، تحقيق: على محمد البجاوى، الطبعة الأولى، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة: ١٩٦٣، ٣/ ٦٦٢، ٦٦٣).

(٢) ابن هشام: السيرة النبوية: تحقيق مصطفى السقا وآخرين، مكتبة الحلبى، القاهرة، ١٩٥٥م، ص ٣ : ٦.

وقد أطلق المحدثون وأصحاب كتب الرجال على غزوات الرسول خاصة اسم «المغازى و«السير»، والمراد بهما عند مؤرخى المسلمين تلك الصفحة الأولى من تاريخ الأمة العربية: صفحة الجهاد فى إقامة صرح الإسلام وجمع العرب تحت لواء الرسول محمد – عليه الصلاة والسلام – وما يضاف إلى ذلك من الحديث عن نشأة النبى وذكر آبائه وما سبق حياته من أحداث لها صلة بشأنه وحياة أصحابه الذين أبلوا معه فى إقامة الدين.

ويطلق على كتاب ابن إسحق اسم المغازى والسير أيضاً، وقد استخدم ابن حجر فى كتابه فتح البارى كلا المعنيين وورد اصطلاح المغازى أيضاً فى كتب الفقه وكان يقصد بكلمة «سيرة» فى باب كتاب الجهاد والسير أحكام الغزوات والجهاد، وقد تطور المفهوم الاصطلاحى للسيرة عبر العصور، ففى القرن الثالث الهجرى كانت كتب السيرة الشهيرة مثل: سيرة ابن هشام وسيرة ابن عائذ وسيرة الأموى تحتوى غالباً على ذكر الغزوات ثم تطورت بعد ذلك وضمت إليها روايات أخرى إلى جانب المغازى، وبناء على هذا كانت المغازى والسير فى اصطلاح المحدثين تختلف عن فن الحديث، وفى بعض الأحيان كان أصحاب السير والمحدثون يعتبران منافسين لبعضهما البعض(١).

وقد أقبل العرب على المغازى واهتموا بأفعال الرسول وأقواله وانتشر هذا الفن عند المسلمين وظهر أساطين هذا الفن مثل ابن إسحاق والواقدى، ولقى هذا الفن قبولاً لدى العامة، بينما اعتبره الخواص غير ثقة، وقد هاجم المحدثون أصحاب المغازى، يقول الإمام أحمد بن حنبل: «ثلاثة كتب ليس لها أصول، المغازى والملاحم والتفسير»، ويقول الخطيب البغدادى: «وأما المغازى فمن أشهرها كتاب محمد بن إسحاق وكان يأخذ من أهل الكتب، وقد قال الشافعى كتب الواقدى كذب».

وفى ذلك الوقت كتب الإمام الزهرى (توفى ١٢٤ هـ) كتاباً مستقلاً فى المغازى، ومن بين تلاميذ الزهرى كان موسى بن عقبة ومحمد بن إسحاق اللذان أوصلا فن المغازى إلى قمته وبهما وصل هذا الفن إلى نهايته، وكان محمد بن إسحاق إمام فن المغازى وله شهرة ذائعة فى هذا الفن ولا يقل الواقدى شهرة عنه، إلا أن الواقدى يقل عنه فصاحة ويزيد ضعفاً فى روايته، خلافاً لابن إسحاق الذى تتلمذ على يد الزهرى، وهو تابعى رأى أنس بن مالك وترك لنا ابن إسحاق كتباه «المغازى»، وهو الأصل الذى أقام عليه ابن هشام سيرته، حيث أضاف إلى هذا الكتاب بعض الإضافات ولم يبق لنا من أصل «المغازى» اليوم إلا ما هو موجود فى سيرة ابن هشام، وقد لاقت سيرة ابن اسحاق قبولاً عظيماً

---

(١) شبلى: سيرة النبى: ١/٢٣ (المقدمة).

وأقبل على نظمها الشعراء وكان آخرهم فتح الدين محمد بن إبراهيم المعروف بابن الشهيد المتوفى سنة ٧٩٣ هـ، حيث نظمها فى عشرة آلاف بيت وسماها: «فتح الغريب فى سيرة الحبيب»(١)

أما الواقدى فكذب رواياته الخطيب البغدادى وغيره، إلا أن ابن سعد (متوفى ٢٣٠هـ)، وكان من خاصة تلاميذه قام بتأليف كتاب جامع فى حياة الرسول وأفعاله لا مثيل له حتى الآن وهو معروف بـ«طبقات ابن سعد»، وكان ابن سعد محدثاً مشهوراً وثقة خلاف أستاذه الواقدى ضعيف الرواية، يقول عنه الخطيب البغدادى كان من أهل العلم والفضل والفهم والعدالة صنف كتاباً كبيراً فى طبقات الصحابة والتابعين إلى وقته فأجاد فيه وأحسن، وقد تتلمذ عليه البلاذرى المؤرخ الشهير، ويقع كتاب الطبقات فى اثنى عشر مجلداً تشغل السيرة النبوية المجلدين الأولين، وكتب لهذا الكتاب البقاء بسبب تعهد ملك ألمانيا بطبعه على نفقته، فقام المستشرق زخاو بجمع أجزائه وطبعه فى ليدن بهولندا، ثم ظهرت بعد ذلك كتب تاريخية منفصلة فى السيرة مثل: التاريخ الصغير والتاريخ الكبير للإمام البخارى ثم كتاب تاريخ الطبرى وما إلى ذلك(٢).

والحق أن التراجم العربية والإسلامية قد فاقت من حيث كثرتها وتنوعها وافتنانها فى ترتيب الأعلام المترجمة، وافتنانها من حيث تبويب موضوعات التراجم والاهتمام بها حتى فى كتب التاريخ العام وكتب الشروح اللغوية، والترجمة لأعيان كل بلد أو كل مدينة فى كتاب واحد، والترجمة لأعلام النساء بجانب أعلام الرجال وتحقيق الوفيات والمواليد قدر ما سمحت به ظروف حياتهم الاجتماعية والاستشهاد بآثار المترجم لهم فى النثر والشعر وضبط الأعلام وتحقيق المتشابه منها، فقد فاقت فى كل ذلك غيرها من التراجم فى الآداب الأجنبية الأخرى فى القديم والحديث(٣).

وقد وضع المسلمون قواعد صارمة للتأكد من الخبر الذى يدون فى السيرة النبوية وطوروا علماً جديداً مبتكراً قاصراً على السيرة النبوية وهو فن أسماء الرجال واشترطوا لصحة الخبر أن يكون راويه موجوداً ومشاركاً بنفسه فى الحدث وكانوا يتأكدون أولاً من صدقه وكونه عالماً أو جاهلاً؟ ثقة أو غير ثقة؟ وما أسلوب حياته وسلوكه وذاكرته وفهمه وتحققوا فى هذا الفن من تراجم لمائة ألف من الرجال، يقول المستشرق سبرنجر(٤)

---

(١) المرجع السابق: ١/٢٩، ٣٣.

(٢) المرجع السابق: ٣٣، ٣٤.

(٣) محمد عبد الغنى حسن التراجم والسير ١٢.

(٤) سبرنجر (١٨١٣ - ١٨٩٣)، ولد فى التيبيرول، وتعلم فى انسبروك وفيينا وباريس ورحل إلى لندن =

Sprenger فى مقدمته على كتاب «الإصابة فى تمييز أحوال الصحابة» لابن حجر لم يظهر قوم فى العالم اخترعوا هذا الفن العظيم لأسماء الرجال كالمسلمين الذين عن طريقهم يمكننا أن نعرف أحوال خمسمائة ألف رجل، وكان يحيى بن سعيد القطان أول من كتب كتاباً فى جرح رواة هذا الفن وتعديلهم وكان من الثقات، وقد ألفت بعده عدة كتب فى هذا الفن مثل «تهذيب الكمال» ليوسف بن الزكى المتوفى سنة ٧٤٢ هـ و«تهذيب التهذيب» لابن حجر العسقلانى و«ميزان الاعتدال» للعلامة الذهبى، وأضاف ابن حجر إليه وكتب باسم «لسان الميزان»(١).

وبعده «السيرة النبوية» لابن هشام، وفى أواخر القرن الثالث الهجرى كتب المسلمون سيراً عديدة من أهمها «سيرة أحمد بن طولون» لأحمد بن يوسف بن الداية الكاتب المصرى، ولعل هذه هى أول مرة ينتقل فيها استعمال لفظة «السيرة» من سيرة النبى إلى سيرة غيره من الرجال، وفى أواخر القرن الرابع الهجرى كتب عبد الله البلوى «سيرة ابن طولون»، وكان يروى الأخبار بطريقة الإسناد على نحو ما يفعل أصحاب الحديث وكتاب الطبقات فى القرنين الثانى والثالث.

وفى القرن الخامس اتصل أبو النصر العتبى (المتوفى ٤٢٧ هـ) بالأمراء الغزنويين وشهد عن كتب جلائل الأعمال والفتوح التى قام بها السلطان محمود الغزنوى، وألف كتاباً أسماه: «اليمين» نسبة إلى يمين الدولة محمود الغزنوى بسط فيه ترجمة حياته وترجمة أبيه السلطان سبكتكين، وأودع فيه من المعارف التاريخية مالا غنى عنه لمؤرخ يهتم بذلك العصر وكتبه مسجوعاً على نحو ما فعل الثعالبى فى كتابه «يتيمة الدهر».

وفى القرن السادس الهجرى كتب المؤرخ ابن الجوزى سير جماعة من عظماء الأمة الإسلامية، فقد كتب سيرة للخليفة عمر بن الخطاب – رضى الله عنه – أفاض فيها وذكر كثيراً من أخباره وفضائله وأولياته وإدارته المملكة الإسلامية وتدوين الدواوين، وجرى

= وتجنس بالجنسية البريطانية (١٨٣٨)، ونال الدكتوراه فى الطب من ليدن (١٨٤١) فأرسلته شركة الهند الشرقية إلى الهند طبيباً (١٨٤٢)، وولته الحكومة رئاسة الكلية الإسلامية فى دهلى، ثم مدرسة كلكتا وعينته مترجماً للغة الفارسية، فأصدر فى دهلى أول صحيفة بالأردية، وانقطع عن خدمة الحكومة (١٨٥٧)، فعين أستاذاً للغات الشرقية فى جامعة برن بسويسرا.

آثاره: «أصول الطب العربى فى عهد الخلفاء»، وهى رسالته فى الدكتوراه (باتافيا ١٨٤١)، و«اصطلاحات الصوفية لعبد الرازق السمرقندى كلكتا ١٨٤٥)، وتحقيق الإصابة فى تمييز أحوال الصحابة» لابن حجر العسقلانى (كلكتا ١٨٥٦)، و«سيرة اليمينى للعتبى» (دهلى ١٨٤٨)، سيرة «محمد» فى ثلاثة أجزاء وأعانه فيها نولدكه (الطبعة الثانية برلين ١٨٦١).

(١) شبلى: سيرة النبى: ١/ ٣٤ – ٤١.

فى الأخبار على طريقة الإسناد، ولا تقل سيرته للخليفة الزاهد عمر بن عبد العزيز عن سيرته للخليفة الثانى.

واختفت فى القرن السابع والثامن والتاسع ظاهرة السير للأموات السالفين وحلت محلها سير الأحياء من الملوك وأصحاب السلطان، فنرى ابن شداد (المتوفى سنة ٦٣٢ هـ)، يكتب سيرة لصلاة الدين الأيوبى عنوانها: «النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية»، ونرى محمد بن أحمد النسوى المؤرخ «المتوفى سنة ٦٣٩ هـ»، يكتب «سيرة السلطان جلال الدين منكبرتى» من ملوك الدولة الخوارزمية، ونرى ابن عربشاه (المتوفى سنة ٨٤٥ هـ) يكتب «عجائب المقدور فى أخبار تيمور» وهو سيرة لتيمور لنك، وقليل منها فى سير العلماء والصوفية مثل كتابى ابن حجر (المتوفى سنة ٨٥٢ هـ) فى سيرة السيد البدوى والسيد عبد القادر الجيلانى وكتاب السخاوى (المتوفى سنة ٩٠٢ هـ) فى ترجمة شيخه وأستاذه ابن حجر وكتابى السيوطى فى مناقب الإمام مالك والإمام أبى حنيفة(١).

وفى العصر الحديث وبالتحديد فى الثلث الثانى من هذا القرن ظهرت «العبقريات» وطائفة أخرى من التراجم للمرحوم عباس محمود العقاد، وظهرت سير محمد وأبى بكر وعمر للدكتور محمد حسين هيكل، وظهر «عثمان» و«على وبنوه» للدكتور طه حسين، وظهرت السيرة الصريحة الجريئة التى كتبها ميخائيل نعيمة عن حياة جبران خليل جبران، وأخذت شخصيات التاريخ الإسلامى من الصحابة والتابعين والخلفاء والقواد والملوك والولاة والعلماء والأدباء تكتب بأقلام جديدة تستمد حقائق التاريخ من قديم المصادر وعتيق المراجع وتحللها على أضواء من علم النفس، وتبين فى ذكاء ووعى أثرها فى البيئة التى أخرجتها وأثر البيئة فيها، وتصور العوامل الفعالة المشتركة بين المترجم له وعصره حتى يتضح أثر كل منهما فى صاحبه(٢).

وهكذا كانت «تشغل تراجم الرجال فى آداب اللغة العربية أبين مكان، وتستغرق أكبر حيز، بل لا نبالغ إذا قلنا إن ما نسميه اليوم «أدب اللغة» كان يدور حول تراجم الرجال من أدباء وشعراء وعلماء وذكر شئ من أجود ما قالوا، فأقدم كتب الأدب كالأغانى إنما بنى على الأصوات المختارة وتدرج منها إلي ذكر الأدباء وترجمة حياتهم وأهم ما عرض لهم(٣).

---

(١) محمد عبد الغنى حسن: التراجم والسير: ٢٨ : ٣٠.

(٢) المرجع السابق: ١٤

(٣) أحمد أمين: فيض الخاطر: ط ٣، مكتبة النهضة المصرية: ٢ / ١٧٤.

السيرة فى الأدب الأردى

يعد فن السيرة من الأنواع المتأصلة فى الآداب الإسلامية: الفارسية والتركية والأردية وغيرها، إلا أن ظهور هذا النوع الأدبى بمفهومه الفنى والمنهجى الحديث يرجع فضله إلى الأوربيين وما حددوه من أطر منهجية لدراسة هذا النوع الأدبى القديم فى ثوب جديد. وظهرت المحاولات الأولى لفن السيرة فى الأدب الأردى متمثله فى كتاب «تذاكر الشعراء التى كانت تحتوى على «سيرة حياة» أو «ترجمة حياة» مجموعة من الشعراء معاصرين لكاتب التذكرة أو غير معاصرين، من بلدته أو من غير بلدته.

ومن الطبيعى أن تكون هذه المحاولات غير منهجية شأنها شأن الأعمال الرائدة فى أى فن وإن كان لها أهمية من الناحية التاريخية.

والتذكرة «صورة متطورة من الـ «بياض» وهو عبارة عن مجموعة من الأشعار المختارة فقط، وإذا ما أضيفت إلى هذه الأشعار اسم صاحب الأشعار وتخلصه يصبح اسمها «تذكرة» ثم ترتب أسماء هؤلاء الشعراء ترتيبًا خاصًا سواء كان ترتيبًا أبجديًا أو تاريخيًا إلى جانب دراسة مختصرة لحياتهم وأشعارهم، وتضم «التذكرة» بين دفتيها قليلاً من التاريخ والنقد والسير»(١).

وكلمة «تذكرة» فى المعاجم الفارسية والأردية تعنى «ذلك الكتاب الذى يتناول حياة الشعراء»(٢) ثم تطور هذا المفهوم ليشمل تذكرة الأطباء والحكماء والصوفية والعلماء إلا أن «دولت شاه السمر قندى كان أول من استخدم هذه التذكرة بمعنى تذكرة الشعراء فى كتابه «تذكرة دولتشاه عام ٨٩٦ هـ»(٣)، ثم استخدم الأدباء بعده هذا المعنى الاصطلاحى ولذلك عندما نقول تذكرة مير حسن وتذكرة شورش وتذكرة عشقى فإننا نقصد «تذكرة الشعراء».

---

(١) فرمان فتح پورى: اردو شعرا تذكر اورتذكره نگارى. مجلس ترقى ادب. ط١. لاهور. ١٩٧٢م ص:١١.

(٢) فرهنگ آصفيه: مطبعة رفاه عام لاهور. ١٩٠٨م: ١/٤٧٤.

– نور اللغات: مطبعة نير بريس. لكناو. ١٩٢٧م: ٢/١٨٦.

(٣) على رضا نقوى: تذكره نويسى در هند وباكستان: طهران. ١٩٦٤م: ٥ (المقدمة).

وكان ظهور «التذاكر» في الأدب الفارسي سابقا لظهورها في الأدب الأردي ولهذا تأثر في كتابة التذاكر في الأدب الأردي بما كتب عن هذا الفن في الأدب الفارسي وأكبر دليل على هذا الرأي أن هناك تذاكر عديدة ألفت في الشعر الأردي قبل «آب حيات» لمحمد حسين آزاد ١٨٨٠م كتب أكثرها باللغة الفارسية، ورتبت حسب الطريقة القديمة لكتابة التذاكر في الفارسية. وقد كانت تذكرة «لباب الألباب» «لنور الدين محمد عوفي» من أقدم التذاكر التي وصلتنا وألفت فيما بين ٦١٧ هـ و ٦١٨ هـ بينما ألفت تذكرة «نكات الشعراء» أقدم التذاكر الأردية عام ١١٦٥ هـ/ ١٧٥٢م ومؤلفها ميرتقي مير. ويؤكد الدكتور فرمان فتح پوري في كتابه «اردو شعرا» تذكر ۷ اور تذكره نگاري «أن تذكرة» نكات الشعراء «هي أول تذكرة في الأدب الأردي وأنها سبقت «گلشن گفتار» و«تحفة الشعراء» على الرغم من أن الثلاثة ظهروا عام ١١٦٥ هـ[١].

وهناك أسباب عديدة لظهور فن التذاكر هي: الرغبة الفطرية لدى الشاعر بترك ذكرى له - التشوق إلى كتابة مختارات من الشعر- التعصب لشاعر معين - رواج الندوات الشعرية انتشار الشعر الأردي ورواجه. وقد ظهرت عدة تسميات للتذاكر وهي: «بياض» و«سفينة» و«جنگ» وجميعها تدور حول المعنى الاصطلاحي للتذكرة[٢].

وقد بدأت كتابة تذاكر الشعراء في الأدب الأردي في منتصف القرن الثامن عشر الميلادي تقريبًا، وانتهت بتذكرة «آب حيات» المؤلف عام ١٨٨٠م حيث انتهى بعدها عصر كتابة التذاكر وبدأ يظهر بدلاً منها كتب السير وتاريخ الأدب والنقد متأثرًا بالتأثيرات الغربية، بل إننا نجد في «آب حيات» أسلوبًا مختلفًا تمامًا عن منهج التذاكر القديمة، حيث بحث محمد حسين آزاد فيه تاريخ اللغة الأردية والقضايا اللغوية المتعلقة بها وسمات الشعر في مختلف العصور وشخصية الشاعر وخصائص شعره. وهذا الكتاب يعد تطورًا في كتابة التذاكر والتراجم، ولكنه لا يدخل ضمن كتب «تاريخ الأدب» لأنه تناول الشعر دون النثر.

وقام فرمان فتح پوري بإحصاء التذاكر بداية من «نكات الشعراء» إلى «آب حيات» فوجدها سبعًا وستين تذكرة قام بترتيبها ترتيبًا تاريخيًا مقسمًا التذاكر إلى قسمين: الأول: تذكرة عامة: وهي التي تهتم بذكر الشعراء من البداية حتى عصر كاتب

---

(١) فرمان فتح پوري. المرجع السابق ص ١٤ و ٢٦

(٢) فرهنگ نظام: أعظم استيم بريس. حيدر آباد الدكن. ١٥٣١هـ: ٢/ ٧٨٧.

التذكرة. والثانى: تذكرة خاصة: وهى مقصورة على ذكر عهد خاص من عهود الشعر أو شعراء منطقة بعينها أو نوع خاص من الشعراء. وينصب اهتمامنا بكتب التذاكر هنا لما تحويه هذه التذاكر من لمحات للسيرة الأدبية، حيث تُعد هذه التذاكر المنبع الأصلى لحياة الشعراء القدامى وسيرهم، ونستقى من هذه التذاكر سير شعراء الأردية فى شمال الهند حتى الدكن وعلى رأسهم حاتم وسودا وميرو يقين وقائم ومصحفى وانشا وآتش وناسخ وجرأت وممنون وميرحسن وتابان وغالب ومؤمن وذوق ونسيم وأنيس ودبير وظفر وغيرهم.

ولم يكن من المتوقع فى لغة وليدة كالأردية أن يظهر فن السيرة بكامل ملامحة الفنية والأدبية، وأن يخلو هذا الفن من العيوب تمامًا لأن مثل هذه السير الفنية كانت غير موجودة فى ذلك الوقت (أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين) فى اللغة العربية والفارسية التى يمتد تاريخهما الأدبى لأكثر من ألف عام، لذا كان من الطبيعى أن يواجه كتاب السير فى الأردية صعوبات عديدة من نوع تلك الصعوبات التى تواجه المؤسسين الأوّل لكل فن جديد. وقد اعترف كل من حالى وشبلى بهذه الصعوبات -وهما من مؤسسى فن السيرة فى الأدب الأردى- وأشار شبلى إلى هذه الصعوبات فى سيرة «الفاروق».

ومن المسلم به أن الأردية كما يذكر سيد عبد الله قد استعانت بالأدب العربى والفارسى فى تكوين أدبها الوليد فى أطوار نشأتها الأولى، لذا كانت السيرة الأردية فى بداية ظهورها تعتمد اعتمادًا كليًا على فن السيرة فى الأدب العربى والفارسى، وتعد «السيرة النبوية» أقدم وأهم فروع فن السيرة وهى متعلقة بسيرة حياة الرسول ﷺ وقد طور المسلمون هذا الفرع وأولوه فائق اهتمامهم وقد واكب هذا الفرع ظهور «المغازى» وهى خاصة بغزوات الرسول «الشمائل» وكانت تهتم بأخلاق الرسول وعاداته وهما من فروع السيرة. لقد كان اقبال المسلمين على فن السيرة فى الغالب لتطوير «علم الحديث» لأنهم كانوا يقومون بجمع وقائع الحياة الصحيحة لرواة الحديث ويقومون بنقدها وتجريحها، وقام علماء الحديث بجمع حياة آلاف الأشخاص لتحديد صحة الحديث، ولم يكن الدافع إلى ذلك تعظيم أحد أو الحط من شأن آخر، وظلت نزعة الإخلاص والنزاهة الدافع الموجه والمتحكم إلى حد كبير فى جميع الأعمال العلمية الأولى فى الأدب الإسلامى وخاصة فن السيرة. وكانت الميول الأولى للسير الإسلامية تبدو فى صور

مختلفة وظل كتاب السير يطبقون هذا المنهج ردحًا من الوقت وبدأت فكرة كتابة سير المشاهير فى الأردية تظهر تدريجًا بتأثير من الحكومات الفردية إلا أن التصوير الجماعى ظل هو الأسلوب الغالب فى السير العربية، حيث كان يتم تصوير لعامة الطبقات والجماعات المرتبطة بالملوك كالأدباء والعلماء والكتاب والظرفاء والبخلاء وعلاوة على المجانين والمغفلين ونتيجة لهذا ازدهرت سير الجماعات والطبقات فى الأدب الإسلامى فى مقابل سير الأفراد، وقد ألفت سير المشاهير بأعداد كبيرة بعد هجوم التتار وكتبت سير الأولياء والصوفية بالإضافة إلى سير الملوك غير أن سير الملوك كان يغلب عليها الجانب التاريخى أكثر بينما يتم ذكر المعجزات والكرامات فى سير الصوفية وأهل الباطن وهذا النوع موجود على هيئة مناقب وأقوال وملفوظات، ويقل فيه جانب السيرة ولا يمكن أن نعتمد عليه اعتمادًا كليًا، والأدب الفارسى يتوفر فيه هذا النوع من السير غالبًا، ويمكن تقسيم جانب السيرة المفيد فى هذا الأدب إلى شعبتين هما: التذاكر والمذكرات الشخصية مثل يوميات ملوك المغول، نعم يوجد فى كتب التذاكر مادة قيمة للسير لكن التذاكر فى حد ذاتها لا يمكن أن تغنى عن السير الكاملة لأن التذاكر فرع من فروع فن السيرة ولا تحتوى على الأحداث الكاملة بل تقدم فقط أحداثًا مختارة وضئيلة عن حياة الأفراد فهى تقوم باقناعنا بهذا الذوق الجماعى الذى راعته حضارتنا فى البداية(١).

وقد استفاد كتاب السير فى الأدب الأردى من النثر الأردى فى أدواره الأولى، لذا جاءت معظم محاولتهم طبقًا لنماذجه ولهذا السبب لم يكن فى ذلك الوقت غير التذاكر التى تعد ثروة جديرة بالذكر إذ لم ترج كتابة السير بالمعنى الصحيح إلا نتيجة التأثيرات الغربية الحديثة.

وقد بدأت كتابة السير الأردية نتيجة للتأثيرات الغربية فجاءت على طريقة المناظرات التى كانت إحدى الطرق الخاصة التى اتبعها المبشرون المسيحيون فى القرنين السابع عشر والثامن عشر كتبوا سيرة الرسول ﷺ وسيرة مشاهير الإسلام بهدف نشر الشبهات حول الإسلام ولم تكن كتابة هذا النوع من السيرة قاصرة على المسيحيين بل كان المؤرخون الهنادكة يشاركونهم فيه فى بعض الأحيان، لذا كانت كتابة التاريخ التى اضطلع بها المسيحيون والهندوس فى ذلك الوقت هى سمة العصر فكان من الطبيعى أن يقوم المسلمون بحركة مضادة لدحض أكاذيبهم بنفس الأداة وهى السير وعليه فقد ظهر

---

(١) سيد عبد الله: سر سيد أحمد خان اوران] رفقًا كى نثر كافكرى اورفنى جائزه. ط٣. علمى كتب خانه - اردو بازار - لاهور ١٩٧٩م ص: ٨٠-٨٢.

«خطبات أحمدية» للسير سيد أحمد خان كإحدى حلقات هذه السلسلة ومن بين المناظرات التى كتبت آنذاك «بى بى هاجره» أى السيدة هاجرو «ماريه قبطيه» لمولوى چراغ على وكتاب «أمهات الأمة» لمولوى نذير أحمد[1].

وبرز فى ذلك الوقت كل من حالى وشبلى كرواد لكتابة السيرة وبقيام كتب السيرة لديهم على الأصول العلمية لهذا العلم يمكن القول بأن أكثر المحاولات العلمية فى عصر السير سيد كانت دفاعية فى المقام الأول، ولم يكن دفاعية العلم من أجل العلم أو الأدب من أجل الأدب بل كان هدفها الرد على الأفكار الغربية وتكوين جبهة قومية وقد أفادوا من التاريخ والسير على أكمل وجه لتقوية هذه الجبهة القومية التى كانت ضرورة ملحة للخروج من حالة الضعف التى نشأت فى الهند بفعل أفكار المؤرخين والمؤلفين الغربيين ولم يكن هناك أى شيء يمكن أن يفيد فى هذا الأمر غير السير، فكانت سير سلسلة مشاهير الإسلام أفضل وسيلة فى ذلك الوقت، واضطلع بها شبلى النعمانى فأخرج منها سيرة النبى، الفاروق، المأمون، النعمان، الغزالى، مولانا جلال الدين الرومى وأعد شبلى خطة للدفاع عن الإسلام فى كتابة السير بدلاً من الخطة الدفاعية السابقة وتقدم للأمام فى هذا الميدان فكان من أكبر العوامل على تقوية هذه الجبهة القومية وبالرغم من هذا فقد كان لحالى قصب السبق فى فن كتابة السير فجاءت سيرة من أفضل السير الأردية من الناحية الفنية، ومع أن سيرة تناولت كذلك حياة المشاهير إلا أن هدفها كان يختلف إلى حد كبير -عن هدف سير شبلى. وبالإضافة إلى حالى وشبلى قام أدباء آخرون بكتابة السير نذكر منهم: ذكاء الله ونذير أحمد وچراغ على وعبد الحليم شرر، وتنحصر كل مؤلفات ذكاء الله فى السيرة فى «ملكة وكنوريه كى لائف» أى «حياة الملكة فيكتوريا ويعتقد أنها مترجمة. أما السير التى كتبها نذير أحمد وچراغ على فليس لها أهمية كبرى فهى عبارة عن مناظرات فقط ولا شك أن سير «عبد الحليم شرر» وتصويره للمناظر جديرة بالاهتمام من هذه الناحية، حيث يهتم المؤلف بالجزئيات الشخصية الخاصة بالبطل ويصبح غيرها أمراً ثانويًا لهذا لم ينجح ككاتب سيرة فى النهاية وخطته على كل حال جيدة. بعد ذلك ظهر كتاب سيرة بدت فى سيرهم بصمات شبلى وحالى واضحة وتكونت لشبلى مدرسة فكرية فى كتابة السير من أعضائها الجديرين بالذكر: سيد سليمان الندوى وعبد السلام الندوى وحبيب الله خان شروانى وكان التردد والتشكك سمة واضحة في كتابة السير فى هذا العهد وحاول كتاب السيرة فى قطع

---

(١) المرجع السابق: ص: ٨٣.

صلاتهم بالتقاليد القديمة إلا أن مؤلفاتهم رغم هذا يوجد بها خصائص تذكارية قديمة. ولم يظهر في ذلك الوقت كاتب سيرة يكتب السيرة النقدية "Critical Biography" فيعرض العيوب جنبًا إلى جنب المحاسن ويظهر الزلات والعثرات بجانب الأفكار السامية(١).

ولم تكد الأفكار والتصورات الغربية لفن السيرة تصل إلى الهند حتى تهيأت جميع الأطراف لقبولها إلا أنه لم يتضح في ذلك العصر التصور الصحيح لأهمية هذه الأفكار وربما يرجع سبب ذلك إلى أن أكثر كتاب السيرة كانوا جاهلين باللغات الأجنبية ولم يكن لديهم معرفة تامة بكنوز الأدب العربي وكان ما يحصلون عليه من أفكار وتصورات يتم عن طريق طرف ثالث.

ولم يستطع كتّاب السير في الأردية في هذا العصر تقعيد القواعد والأصول الفنية التي تتناسب مع ضروريات العصر في الوقت الذي كان يرجى منهم الاهتمام بوجهة النظر العلمية والفنية الخالصة، وقد اعترف حالي أكبر كاتب سيرة في الأدب الأردي بالعجز أمام هذه القواعد كما كان شبلي من بعده مترددًا فيما يتعلق بالأصول العربية لكتابة السيرة لهذا كان من الضروري عرض محاسن البطل وعيوبه معًا حتى لا تصبح السير «مدحًا مدللاً وكتابًا للمناقب» إلا أن هذه الطريقة القديمة لكتابة السير بدت من ناحية أخرى خداعًا وبعدًا عن الحقيقة كما يرى شبلي في قوله «إن مجرد الصمت فقط في المنهج القديم لكتابة السير يعد جرما بينما يعد في المنهج الحديث خيانة وخداعًا ويبتعد بمراحل عن تصوير الواقعة(٢).

وقد كانت عاطفة الإحياء القومي هي المحرك الأساسي لكتابة فن السيرة في ذلك العصر وكانت أروع السير تكتب بهدف الإحياء القومي ونشر الوعي بين الشعب لقد كتب حالي سيرة «غالب» لأن غالب بث في الشعب الحيوية والتوثب والشباب بسخريته وجمال طبعه ونفس هذا السبب هو الذي جعله يكتب «حيات سعدي» و«حيات جاويد» ويأتي شبلي من بعده فيوجه جل اهتمامه بتاريخ بطولات الأسلاف الخالدة، وقد التزم كتّاب السيرة في الأدب الأردي بعد حالي وشبلي بهذه الأصول فاهتموا بالأعمال العقلية أكثر من اهتمامهم بالأشخاص أنفسهم فكانت بهذه الطريقة

---

(١) سيد عبد الله: سير سيد أحمد خان: اوران رفقا كي نثر كافكري اورفني جائزه: ص: ٨٤-٨٥.

(٢) شبلي: مقالات شبلي: ٤/٦.

تتوفر لديهم المادة اللازمة للإحياء القومى وإيقاظ الوعى وكانت نزعة خاصة مسيطرة على منهج كتابة السير فى هذا العهد وهى أن كتابة السير لم تكن هدفًا فى ذاتها بل كانت وسيلة لإيقاظ الوعى القومى، وهذا الاتجاه يقل فى سير حالى ويزيد فى سير شبلى فمثلاً لم يكن الهدف الأصلى من سيرة الغزالى ومولانا روم والنعمان بل وشعر العجم هو تدوين حياة هؤلاء الأشخاص، بل كان الهدف هو كتابة تاريخ فروع الأدب عن طريقهم.

وفى فجر السيرة الأردية كان الحس التاريخى ووجهة النظر التاريخية هما المتحكمين فى كتابة السير مع أنه يجب على السير الجيدة أن تكون منفصلة عن التاريخ، حيث يتم بعث الأشخاص من جديد ومواجهتهم بالحياة النابضة النشطة وعرض وجهة نظر هؤلاء الأشخاص من خلال خلق نوع من الحوار معهم ومعرفة أعمالهم وأفعالهم. ولم يتقدم فن السيرة فى هذا العهد بل نجد كتاب السير فى هذه المرحلة يتناولون حياة الأشخاص بشىء من الاختصار الشديد فى حين أنهم يتناولون كل مظاهر الحياة حوله بشىء من التوسع مثل الحضارة والثقافة وحتى الجغرافية ويأتى فى ثناياها أحداث بعيدة من خارج الوطن. وقد خيم هذا التصور التوسعى والشمولى على فن كتابة السيرة ويمكننا القول أن السير آنذاك كانت تواريخ جامعة لهذا العهد. فمثلاً نجد محمد حسين آزاد الذى يمكن أن نعتبره كاتب سيرة ناجحًا – من خلال بعض نزعاته – تلتقى حدود كتابة السير عنده بالرواية التاريخية التى نجد فيها الأشخاص التاريخيين تختلط – جزئيات حياتهم الواقعية بالخيال، لكن لا شك لآزاد ولعا شديداً بالتفاصيل الجزئية الذاتية وهى ميزة خاصة وهامة لكاتب السيرة(١).

وفيما يلى سوف أتناول فن السيرة عند ألطاف حسين حالى وشبلى النعمانى رائدى هذا الفن بشىء من التفصيل:-

* ألطاف حسين حالى(٢) (١٨٣٧-١٩١٤):

يعتبر ألطاف حسين حالى كاتب السيرة الأول فى الأدب الأردى لهذا الفن وقام حالى بكتابة مجموعة من السير هى بالترتيب: «حيات سعدى» ١٨٨٦م، و«يادگاد غالب ١٨٩٧م، و«حيات جاويد» ١٩٠١م وقد كتب حالى هذه السير بعد أن تأثر بالروح

---

(١) سيد عبد الله: سر سيد أحمد خان اوران] رفقا كى نثر كافكرى اورفنى جائزة: ٨٦-٨٧.

(٢) لمزيد من التفاصيل عن حالى ارجع إلى «ألطاف حسين حالى ومنهجه فى نقد الشعر الأردى» رسالة ماجستير مخطوطة – كلية الآداب – جامعة القاهرة عام ١٩٩٠م من اعداد الباحث.

العلمية فى تلك الفترة وتأثر بالواقعية التى كان السير سيد أحمد خان يكتب بها مؤلفاته حالى أثر السير سيد فى كتابة السير عندما رفض الأساطير والأفكار الخيالية وكان حالى صاحب أسلوب مميز فى النثر الأردى علاوة على كونه شاعراً قرض القريض فى الأردية والفارسية ونجده يتمسك بالواقعية والصدق والبساطة مع قوة أسلوبه وجزالة ألفاظه.

وسوف اتناول فيما يلى حالى طبقًا للترتيب الزمنى لتاليفها، حتى يتضح لنا مدى التطور العقلى الذى طرأ عليها:-

(١) حيات سعدى (١٨٨٦م):

يعد الأدب الفارسى جزءاً لا يتجزأ من تراث اللغة الأردية وحضارتها، وظلت اللغة الفارسية جزءًا من المناهج الدراسية فى الهند واختار حالى وشبلى الشعر الفارسى موضوعًا يدور حوله عدد من كتب السيرة عندهم «حيات سعدى و«بيان خسرو» و«سوانح مولانا روم». ومن الأمور الجديرة بالذكر هنا ان حالى يتشابه مع سعدى فى عدة أمور خاصة بشخصيته من حيث النزعة العلمية والتذوق الأدبى وكان حالى بهذا الاختيار يحاول أن يبرز الحالة النفسية له نفسه فكل من حالى وسعدى قد نظم الشعر وكتب النثر وكلاهما أبدع طريقة جديدة فى الأسلوب وكلاهما ينفر من المبالغة والإغراق فى التكلف والصنعة، وكلاهما كتب مؤلفات بأسلوب بسيط ضمن له الشهرة والخلود فإذا كان «البوستان» نال قبول العالم فإن «المسدس» لا يقل عنه شهرة ونجاحًا. لذا حاول حالى البحث عن نفسه فى سعدى وأى عجب فى هذا وكثير من الأفكار الإصلاحية التى نادى بها حالى كانت رهينة للتاثير الروحى القوى لسعدى على حالى.

ومع أن سيرته «حيات سعدى تهدف، كما يبدو من خصائص الأدب فى هذا العهد إلى الإحياء والوعظ والتهذيب القومى لكن ليس من شك فى ان «الحركة الأدبية» كانت الدافع المتحكم فى تاليفه لهذه السيرة[١].

ونحن نتفق مع كاتب موضوع «سعدى» فى دائرة المعارف الإسلامية الذى يقول إن معظم هذه الحكايات التى نسجت حول سعدى لا أساس لها ونتيجة للخيال المحض ويمكن أن نستخلص من حكاياته الدروس والعبر الأخلاقية.

---

(١) المرجع السابق: ٩٤

لقد جاءت سيرة سعدى كما صورها حالى فى كتابه «حيات سعدى» بحق قانونا للأخلا، يقول شبلى عنها: «إنه من الممكن أن نخرج من شعر سعدى بمجموعة من القوانين فى الأخلاق التى يعتبرها سعدى ضرورية للإنسان الكامل. ويقول إدوارد براون: «يتضح من بعض بنود فلسفة سعدى الأخلاقية «حب الملوكية» وبعضها الآخر «حب الدنيوية» إلا أن اعتراضات براون لم تكن على نظرية سعدى الأخلاقية بل ربما على ثقافة هذا العصر المتحيز للغرب»، فضلاً عن أن حالى أبرز الأخطاء التى وقع فيها كتاب التذاكر السابقون وكان الحق بجانبه فى معظم آرائه وقام حالى بتصحيح أخطاء المؤلفين الأوربيين الذين كتبوا عن سعدى، وسبق ذكرهم فقد ذكر Chmpers أن سعدى زار أوروبا وروج «دى تاسى» هذه المغالطة بقوله: «إن سعدى كان شاعراً من شعراء «الريختة» قد حض حالى هذه المغالطات وكثيراً من هذا القبيل[1].

ويعد كتاب سعدى ذات أهمية كبرى فى تاريخ الأدب الأردى لأن حالى حاول تأسيس نظرية لإصلاح الأدب فى هذا الكتاب وتطرق إلى بعض المفاهيم[2] النقدية التى قدمها بعد بشكل مكتمل ناضج فى «مقدمة شعر وشاعرى».

و«حيات سعدى» من أمهات كتب السيرة الأردية باعتراف شبلى فى قوله عندما كنت أكتب «شعر العجم» أصر بعض تلاميذى على أن أكتب نبذة عن حياة سعدى وبالرغم من ذلك فإن كتابه مؤلف آخر فى هذا الموضوع يعتبر بلا قيمة بعد «حيات سعدى»[3].

(٢) يادگار غالب (١٨٩٧م):

«يادگار غالب» سيرة الشاعر أسد الله خان غالب وأول سيرة كاملة له وقد حاز «يادگار غالب» التفوق والشهرة لعدة أسباب أولها لأن حالى كان تلميذاً لغالب ومعاصراً له، وقد سنحت له الفرصة كاملة لفهم غالب ومعرفة فلسفته بسبب قرب الصلة بينه وبين غالب وهذا ما يجعله يتفوق على أقرانه من كتاب التذاكر الآخرين. وثانيها أن حالى كاتب سيرة من الطراز الأول يتبع أصولاً وقواعد علمية غير متحيزة، فبصرف النظر عن كونه تلميذاً له إلا أنه لم يتحيز له والتزم الاعتدال فى الآراء وإصدار الأحكام وقد كان لهذه الصفة انعكاسها الإيجابى على سيره فلم يفرط فى المدح مثل الدكتور

(١) سيد عبد الله: سر سيد أحمد خان اوران رفقا كى نثر كافكرى اورفنى جائزة: ٩٨-٩٩.
(٢) حالى: حيات سعدى: ١٩٣-١٩٨. (٣) شبلى: شعر العجم ٢/١٧.

«بجنورى» ولم يسرف فى الذم كالدكتور لطيف، كما أنه لم يسلك مسلك مولانا محمد حسين آزاد فى كتابه «آب حيات» الذى كان على حد قول الشيخ محمد إكرام «عندما كانت كفة أستاذه تبدو غير راجحة فى جانب ما كان يكمل الضعف فى براهينه بقوة البيان»[1].

وقد صور حالى غالبًا الشاعر وغالبًا الفكه الساخر بأسلوب جذاب ممتع. يقول غلام رسول مهر: «على الرغم من جميع مزايا «يادگار غالب» فإنه لا يعد سيرة مفصلة وموثوقًا بها لحياة غالب» ونحن إذ نتفق مع مهر فى أنها سيرة غير جامعة أو مفصلة لحياة غالب لكننا لا نتفق معه فى كونها غير موثوق بها لأن مولانا مهر اختلف مع ما أورده حالى فى أربعة مواضع وإن الخروج بهذه الاختلافات الضئيلة من كتاب كبير كهذا لا يعد مثارًا للعجب، وقد اعترف حالى فى مقدمته ليادگار غالب بأنه «لو جمع أى شخص جميع أقوال غالب لامكنه من إعداد كتاب ضخم عن ظرفه وسخريته»[2] إذن «يادگار غالب» يصور الجوانب الساخرة فى شخصية غالب، وقد صور «غلام رسول مهر» فى كتابه عن غالب فقط غالب الضاحك ولم يصور غالب الباكى الحزين مع أن الجانب الآخر هو أهم جوانب حياة غالب ويبدو من شعره ونثره بوضوح. واتبع مهر اسلوب المؤرخ وليس كاتب السيرة، ومن هنا نجد الاختلاف واضحًا فى رأى كل من حالى ومهر عن غالب وحياته الثرية فكل واقعة من وقائع حياة البطل لها مغزى خاص بها ومعان ممتعة، وقد ترك حالى مسائل عديدة فى حياة غالب دون الإجابة عليها لأنها مسائل معقدة مثل: مسألة تتلمذ غالب على يد ملا عبد الصمد والسؤال عن مذهب غالب وأسباب عدم تقدير غالب وغيره.

(٣) حيات جاويد (١٨٩٧):

«حيات جاويد» أو «الحياة الخالدة» سيرة حياة السير سيد أحمد خان وهو شخصية جامعة ومتنوعة الجوانب ولهذا فإن كتابة سيرة شخصية كهذه تعد مسئولية ثقيلة، يقول السير سيد عن حياته «كانت حياتى فى مرحلة الطفولة محصورة فى لعبة شد الحبل والطيارات الورقية وتربية الحمام ومشاهدة حفلات الرقص والسمر وعندما كبرت رمونى بالكفر ونعتونى بأننى من أنصار الطبيعة وإننى دهرى». فكان السير سيد فى هذه

---

(١) محمد إكرام: غالب نامه: ١٠٩.

(٢) حالى: يادگار غالب: المقدمة ص: ٤.

الكلمات الجامعة يضع بنفسه الأصول التى تكتب بها سيرته ويشير بطريقة لطيفة إلى أن حياته هى حياة الإنسان وهى كذلك خلاصة لأعمال رجل مجرب عارك الحياة فى حلبتها، لقد كانت شخصية السير سيد من الشخصيات المتنازع عليها بين مؤيد ومعارض وحامت حولها شبهات عديدة، وكان هذا الأمر فى حد ذاته أحد أكبر المشكلات التى يواجهها كاتب السيرة فى سبيل الظفر بالحقيقة الناصعة. وقد قام كرنل جرهام «بكتابة سيرة السير سيد باللغة الانجليزية Life and Works of Sir Sayed Ahmed khan «قبل «حيات جاويد» كما كتب سراج الدين أحمد صاحب جريدة «چود هوين صدى» أى القرن الرابع عشر «سيرة السير سيد» إلا أن تدوين سيرة السير سيد كاملة كانت من نصيب صاحب «حيات جاويد» ألطاف حسين حالى ولهذا الغرض أقام حالى فى على گرڑھ عام ١٨٩٤م واستفاد فى أثناء إقامته من جميع المصادر الهامة وفى نهاية الأمر قام بترتيب «حيات جاويد» فى مجلدين بذل فيهما غاية الجهد، حيث تناول فى الجزء الأول وقائع حياة السير سيد وفى الجزء الثانى عرض أهم أعماله العلمية والسياسية والتعليمية(١).

وقد نشأ خلاف كبير بين النقاد والمفكرين فيما يتعلق بالقيمة الفنية «لحيات جاويد» وكان اعتراضهم الأول يدور حول نقطة بعينها هى أن سيرة حياة السير سيد ليست سيرة نقدية Critical – وقد استخدم حالى هذا المصطلح نفسه – أى أن حالى يتناول محاسن البطل ولا يذكر مساوئه إلا أن حالى قد أعلن بوضوح فى مقدمة الكتاب بأنه «سوف لا يتناول بالنقد أيًا من تفاصيل حياة البطن لأنه أى السير سيد كان أول شخص يضع قواعد للنقد فى الأدب الدينى لذا فإنه من المناسب أولاً وقبل كل شىء الدفاع عن حياته بدلاً من تناولها بالنقد»(٢). ويبدو فى رأيى من هذه العبارة أن منهج حالى صحيح أما الأمر الثانى فكان اختلاف الآراء حول تدين السير سيد وصلته بالدين فنجد حالى يختلف مع أعمال السير سيد وأفعاله فى هذا الصدد إلا أنه فى نفس الوقت لا يفترض فيها سوء النية، وأكد على أن كل عمل كان يقوم به السير سيد لم يكن يخلو من الصدق وإن كان حالى قد وصفه بأنه عنيد "Despotic". وبالرغم من المنهج الذى اختطه

---

(١) سيد عبد الله: سر سيد أحمد خان اوران] رفقا كى نثر كافكرى اورفنى جائزة: ٨٩–٩٠.

(٢) حالى: حيات جاويد: ١٤.

حالى لنفسه فى مقدمة «حيات جاويد» فإن شبلى أعلن أن «حيات جاويد مدح مبرهن ومدلل وكتاب للمناقب»[1] وهو تصوير من جانب واحد، وكان نقد شبلى فى موقعه تماماً إلا أنه تميز بلهجة شديدة حادة يعزوها البعض إلى التطاعن والتباغض كما أن منبعها عند البعض الآخر سوء الظن والنية التى نشأت بين شبلى والسير سيد بعد ذلك ولم يكن هذا الخلاف خلاف أفراد فى الأصل بل خلافاً فى النظريات السياسية والدينية فمن يختلف اليوم مع آراء السير سيد الدينية هم أنصار شبلى الذين يتهمون حالى بالتحيز وعدم الموضوعية ولا شك أن نظرية شبلى ومؤيديه ليست صحيحة فى كل حال وليست نظرية السير سيد خطأ فى كل حال، فلم يكن حالى بعيداً عن نظريات السير سيد لذا كان من الطبيعى ألا يخالف أفعال السير سيد وأعماله مثلما فعل شبلى. وبالرغم من ذلك كانت آراء شبلى مبنية على أساس فكرى لا شخصى وإلا لما أشاد شبلى بسيرتى حالى الآخرين «حيات سعدى» و«يادگار غالب» ولا أثنى على بعض أعمال السير سيد وانتقد بعض أعماله انتقاداً شديداً. أما حالى فقد كانت جميع تحليلاته تدور حول مقولة «أن السير سيد لم يخل أى عمل قام به من صدق» ونتيجة لهذا الإيمان الكامل بالسير سيد كان يبرر الأفعال التى قام بها السير سيد والتى يدور حولها الشبهات والنزعات بحسن نية تبدو تحيزاً فى عدة مواضع، وعندما قال شبلى إنه «مدح مبرهن» كان اعتراضه على أن حالى لم يتناول بالنقل تلك الأعمال التى كان حالى يختلف مع السير سيد فيها»[2]. حالى كان رجلاً شريفاً وعفيفاً متواضعاً إلى جانب تجنبه للطريقة النقدية فى كتابة السير لذا كان متعاطفاً مع أعمال بطله وأفعاله وهو ما أخذه عليه شبلى مع أن هذا الأمر طبيعة من طبائع الشرقيين وعلى هذا أفتى النقاد بأن قلم حالى انزلق إلا أننا نقول إن حياء حالى يشفع له أخطاءه.

وعلى الرغم مما قيل عن «حيات جاويد» فإنها تعد من أفضل السير التى كتبت فى الأردية – مع وضع الأهمية التاريخية لهذه السيرة فى الاعتبار، حيث تعد من أوائل السير التى كتبت بأسلوب علمى تأثر كاتبها فيه بالمنهج الغربى الحديث – وقد قدم حالى أعمال السير سيد بأسلوب ممتع جذاب فهذا راجع إلى اهتمامه الزائد بحياته الشخصية وهذه السمة خاصة بأفضل السير و«حيات جاويد» مؤلف ضخم وسيرة مسهبة وهذه الضخامة تعد عيبا فى نظر بعض النقاد إلا أننا نرى أن الضخامة لا تعد

---

(١) شبلى: باقيات شبلى: ٧٧.

(٢) سيد عبد الله: سر سيد أحمد خان اوران رفقا كى نثر كافكرى اورفنى جائزة: ٩١-٩٢.

عيباً فى حد ذاتها ما دامت تبتعد عن حشو الموضوعات الزائدة وغير المناسبة.

وأسلوب حالى فى كلا الجزئين مختلف عن الآخر، ففى الجزء الثانى اختار حالى أسلوب البيان التوضيحى والتحليلى فى حين كان يبدو فى بعض المواقع أسلوباً وعظياً تلقينياً إلا أن الأسلوب بصفة عامة كان مناسباً لطول السيرة، فعندما كان حالى يبدأ فى الاستدلال والتأويل تبدو العبارات طويلة والتعبير منطقياً ذا دلالة وأحياناً يبدو عليه الاضطراب فى بعض العبارات أما الجزء الأول فيبدو فيه اسلوب حالى مقبولاً ومستساغاً حيث يكتب عباراته بسيطة ومختصرة ويبدو اسلوبه عاطفياً بسبب حبه وتعاطفه مع البطل وقد أكثر من استخدام التشبيهات والاستعارات لكن بتوازن وانسجام(١).

يقول حالى: «لقد ظهرت السيرة منذ قديم الزمان وظل المسلمون يطورون فيه وفى مناهجها إلا أن أكثر السير كانت مبنية على «الرواية» وتفتقر إلى «الدراية» وبالرغم من وجود كتب التذاكر إلا أنه لم تكتب فى الغالب حياة كبار الشعراء والأدباء بشكل منفصل، وقد بدأ فن السيرة فى أوروبا فى القرن السابع عشر يحمل طابعاً علمياً ومنهجياً منظماً ثم اتخذ هذا الفن شكل إحدى الفلسفات(٢) المنظمة لقد كانت السيرة فى رأى حالى ذكرى خالدة للعظماء وهى كالسوط الذى يلهب ظهور الأمم المتأخرة بعد ازدهار ورقى فيوقظها من نوم الغفلة وإن كثيراً من الناس فى العالم يستخلصون الموعظة والعبرة والسمو والرفعة من سير العظماء فى بلادهم وغير بلادهم إن الفرق بين علم الأخلاق والسيرة هى أن ماهية المزايا والعيوب تبدو معروفة فى علم الأخلاق، بينما تبدو معروفة فى السيرة(٣)، وعلى هذا فحالى هنا فى كل ما يصدر عنه من رأى يمثل النزعة الأخلاقية، حيث إن السيرة فى رأيه وسيلة للوعظ، ويرى حالى أنه ليس فى الأردية سيرة واحدة - قبله - تؤثر فى القلب، وبعض السير فيها ترجمة لسير أجنبية لا تفيد، ولهذا قرر كتابة «حيات سعدى» لأن سعدى شخصية معروفة فى الهند كلها ولا يوجد أى سيرة مفصلة لحياته، إذاً نحن بصدد كاتب للسيرة يحاول تأصيل فن السيرة فى الأردية من البداية، ولهذا فإن الأفكار التى طرحها فيما يتعلق بنظرية السيرة كان بها تأثر عميق بالأفكار الإنجليزية.

---

(١) المرجع السابق: ٩٣.

(٢) حالى: حيات سعدى، طبعة ١٨٨٨م ص: ٥.

(٣) سيد عبد الله: سرسيد أحمد خان أوران، رفقاً كى نثركا فكرى أورفنى جائزه: ٩٤.

وكان أول فرض واجه حالى كاتب السيرة فى البحث والتحقيق فى حياة سعدى هو جمع المادة الخاصة به ثم محاولة نقدها وتحقيقها، ومن ثم تمييز الغث من الثمين، وكانت حياة سعدى متناثرة فى صفحات الكتب القديمة وتحتاج فى أغلبها إلى نقد وتحقيق وبعضها كتب باللغة الإنجليزية فى كتاب «تذكرة الشعراء لـ جورا وسلى ومادة (سعدى فى دائرة المعارف البريطانية وكتبها Chempers)، وهذه المواد كانت فى حاجة إلى نقد وتحقيق أيضاً، علاوة على هذا فقد استقصى حالى كثيراً من المعلومات من كليات سعدى، ومع أن حالى كان أول كاتب سيرة فى الأردية يتلمس حياة سعدى من أشعاره إلا أنها كانت محاولة ناجحة تماماً وتعد «حيات سعدى»، أكمل سيرة عن حياة سعدى، وقد تناول بعض الكتاب «حيات سعدى بعد حالى وهم: شبلى النعمانى فى كتابه «شعر العجم»، وإدوارد براون فى كتابه «تاريخ الأدب الفارسى فى إيران»، وكذلك المستشرق الفرنسى Massé، فلم يدع شبلى أنه كتب سيرة كاملة لسعدى كما أن ما كتبه Massé لا يعدو عن كونه ذكر وقائع حياة سعدى فقط[1].

إن أكثر كتاب التذاكر فى العصر الحديث يعتمدون اعتماداً كلياً على بعض المعلومات التى وردت فى حكايات «بوستان» و«كَلستان» أهم مؤلفات سعدى وطبقاً لهذه الفكرة وهذا المنهج، فقد قام بعض المؤلفين الأوربيين بإبراز بعض الأفكار غير اللائقة التى تتعلق بأخلاق سعدى وشخصيته وعلى هذا قلدهم حالى فى هذا المنهج الذى ساروا عليه لهذا واجه مشكلات عديدة نتيجة اتباعه لهذا المنهج لأنه قام بعرض تأويلات حديثة لإثبات صحة الأحداث والوقائع المختلفة من عدم صحتها ومنها على سبيل المثال الواقعة التى تذكر أن «سعدى جعل نفسه كاهنا فى سومنا»، ولاشك فى أن هذه الواقعة بها كثير من الأخطاء والمتناقضات تخالف الحقيقة، إلا أن حالى بعد نقله لهذا الاعتراض على هذه الواقعة يقول: «بدلاً من أن نتهم الشيخ (سعدى) بالخطأ البيانى كان من الأفضل أن نقول أن وصفه فى هذا الموضوع يعتبر قاصراً عن أداء المعنى المطلوب[2]»!!

* شبلى النعمانى (١٨٥٧ - ١٩١٤م):

يعد شبلى النعمانى ثانى كاتب سيرة فى الأدب الأردى من الناحية التاريخية بعد

---

(١) سيد عبد الله: المرجع السابق: ٩٦، ٩٧.

(٢) سيد عبد الله: المرجع السابق: ٩٧، وحالى: حيات سعدى: ٤٠.

حالى، وبالإضافة إلى ذلك فهو مؤرخ عظيم وركن ركين فى الحياة الثقافية فى شبه القارة الهندية، وعلاوة على مؤلفاته فى السير والتاريخ له مؤلفات أخرى تحتوى على مباحث فلسفية وتعليمية وسياسية وأدبية وأسلوبه فى فن السيرة مختلف تماماً عن أسلوب حالى ومنهجه، وترك شبلى مؤلفات عديدة ومتنوعة فى السير هى: المأمون (١٨٨٧م)، والنعمان (١٨٩١م)، والفاروق (١٨٩٨م)، والغزالى (١٩٠١م)، وسوانح مولانا روم (١٩٠٢م)، وسيرة النبى (جـ١: ١٩١٩م، جـ٢: ١٩٢٠م)، وقد سبق لنا تناول هذه السير - ضمنياً - فى الجزء الخاص بمؤلفات شبلى فى الباب الأول، كما سوف نتناولها بالتفصيل فى الفصل الثانى من هذا الباب والخاص بدراسة هذه السير، لذا سنركز الضوء هنا على هذه الموضوعات: شبلى كاتباً للسيرة، وشبلى المؤرخ، وعلاقة السيرة بالتاريخ، ورأيه فى فن السيرة وأهم خصائص السيرة عنده وهدفها.

* شبلى كاتباً للسيرة:

عند الحديث عن فن السيرة عند شبلى يبرز لنا سؤال هام خاص بالتقويم الصحيح لشبلى وهل يُعد من كتاب السيرة أو من المؤرخين؟ إننا - ظاهرياً - نستطيع أن نصنف شبلى ضمن كتاب السيرة لكن يبقى لنا هذا السؤال، هل بلغ شبلى الكمال فى فنه وفى السير التى كتبها؟ وهل منهج شبلى منهج المؤرخ أو كاتب السيرة؟ وتعد الإجابة على هذه التساؤلات ذات شأن كبير فى توجيه دفة البحث فى ا لموضوع الذى نحن بصدده الآن وهو «شبلى كاتباً للسيرة».

إن الفرق بين منهج المؤرخ وكاتب السيرة كالفرق الذى بين الجراح الذى يجرى العملية وطبيب التشريح فكاتب السيرة يصور الشخصية بمواساة حقيقية صادقة، بينما يشرح المؤرخ العهود الماضية بقسوة ليظهر عيوب التاريخ الإنسانى وفضائله، وهو لذلك لا يرتبط بأى رباط عاطفى مع أى شخص، أما كاتب السيرة رغم أنه لا يفرط فى الصدق والحقيقة فإن حبه للشخصية يعد حجر الزاوية لعمله ويبدأ كل عمله عن طريق التحكم فى العاطفة نحو البطل، أما المؤرخ فيستلهم النتائج والحقائق التاريخية من الأحداث العاملة، بينما تعد كل واقعة لدى كاتب السيرة لها أهمية فى ذاتها ولا صلة له بالنتائج التاريخية أو الحقائق الفلسفية ونخرج من هذا بأن «الفرد»، هو موضوع كاتب السيرة، أما «الحدث» فهو مدار اهتمام المؤرخ أى أن كاتب السيرة يهتم بالإنسان أكثر من الزمان، بينما العكس بالنسبة للمؤرخ الذى يولى اهتمامه الخاص بالزمان والعصر أكثر

من الإنسان، وكاتب السيرة يبحث فى العصر الذى يكون ضرورياً لتصوير حياة الفرد أما المؤرخ فإنه يبحث فى حياة الأفراد بالقدر الذى يسمح له تاريخ العصر، ونجد عقل كاتب السيرة يتجه من الدائرة نحو المركز، بينما ينطلق عقل المؤرخ من المركز نحو الدائرة.

ولو حاولنا تطبيق هذا الرأى على مؤلفات شبلى لوجدناه يقارن بشدة بين عمل المؤرخ وكاتب السيرة ويكاد يمزج بين عمليهما، صحيح أنه يستعمل قالب كتابة السيرة لصياغة عمله الإبداعى، إلا أنه فى كتابة السيرة يختار منهج المؤرخ فينطلق عقله من المركز نحو الدائرة، فلو أحب الأشخاص فهذا ناتج عن معرفته إياهم عن طريق تطورات العصر وحركة التاريخ، إذ إنه ليس مولعاً بالشخصية، بل بالعصر والزمان، ولم تكن صلة شبلى بالأحداث الإنسانية العامة إلا بقدر اهتمامه بالأحداث الهامة والخاصة فهو يستقرئ الحقائق ونتائج التاريخ من الأحداث، ويرى الأحداث كذلك فى ضوء العقائد، فالإنسان لا يمثل له متعة هنا، بل إن عقائده وأفكاره جديرة بالاهتمام، فشبلى أيضاً مؤرخ عندما يكتب السيرة، وقد شرح شبلى منهجه فى مقدمة «المأمون» يقول: «إننى أحاول أن أجعل فى الحياة أو السيرة مذاقاً للتاريخ[1]» جعل شبلى من سيره تاريخاً للعصر مثلما فى المأمون وسيرة «النعمان» و«الفاروق» و«الغزالى»، بل وحتى فى «شعر العجم» و«علم الكلام».

ويعد شبلى من كبار كتاب السيرة فى الأدب الأردى، وقد حاول جاهداً مراعاة أصول هذا الفن فى سيره على الرغم من خروج هذه السير عن الإطار المعروف فى فن السيرة، لذا من الضرورى أن نبحث فى خصائص السيرة وملامحها الفنية عند شبلى: لم تكن القواعد الفنية للسيرة فى أوربا التى راجت وتطورت فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر بمعزل عن شبلى ولا خافية عنه، إلا أنه كباقى كتاب السيرة فى عصره لم يستطع العمل طبقاً لهذه القواعد بشكل تام ومع ذلك فلم يكن هناك تصور كامل لفن السيرة فى تلك الفترة.

ويرى شبلى أن التحيز فى كتابة السيرة يفقد العمل قيمته وجماله، ولهذا فإن كتابة سيرة شخص معروف لدى الناس يُعد عملاً دقيقاً وحرجاً للغاية، وينبغى تناول سلسلة أحداث حياته بحرص شديد وتفنيد أحداثها ويجب ألا يكون لرأى كاتب السيرة دخل فى هذه الأحداث، كما يجب أن تكون الوقائع موثقة بالأدلة والبراهين، لأن وقائع حياة

---

(١) شبلى: المأمون: ٨.

البطل المعروف لابد وأن تكون صحيحة وأن يكون «هذا السند أو الوثيقة مفيداً ولا يحتمل ذرة من الشك[١]».

إننا لو نظرنا فيما كتب من سير خاصة بالعظماء والزعماء - قديماً - نجد أنها تصور حياة خيالية تتجاوز طاقة البشر، إلا أن شبلى رفض هذا المنهج ونادى بأن «تصور حياة البطل بطريقة بسيطة تتجلى فيها خصائص البشرية، صحيح أن الكتابة البسيطة السهلة لا يحبها العامة لكن الذين يعرفون نقد الأوصاف الروحية لا يجدون ضيراً فى هذه الطريقة الجديرة بالاحترام[٢]».

ويعد اختيار «بطل» السيرة من أهم عوامل نجاحها أو فشلها، لذا فإن كاتب السيرة يفكر ملياً قبل اختيار البطل الذى تدور حوله أحداث سيرته، وغالباً ما يخضع اختيار البطل لاعتبارات خاصة بكاتب السيرة، فقد تكون اعتبارات دينية أو سياسية أو أدبية أو تاريخية، وقد اختار حالى أبطال سيره (سعدى - غالب - السير سيد أحمد خان) من بين عامة الشعب، فهم وإن كانوا من علية القوم، إلا أنهم لم يكونوا من رجال الدين أو الأنبياء الذين تحوطهم هالة مقدسة، بينما اختار شبلى أبطاله من الخواص وخاصة الخواص (الرسول ﷺ الخليفة عمر بن الخطاب - الخليفة المأمون - الفقيه الإمام النعمان - المتكلم الإمام الغزالى - الصوفى جلال الدين الرومى)، ففى حين يوجه النقد إلى أبطال حالى يصعب أحياناً توجيه النقد إلى أبطال شبلى.

ويُصر شبلى على أن سيرة البطل لابد أن تهتم بتصوير الخصال التى تتجلى فيها إشراقة الفطرة الإنسانية[٣]، وأكد على ضرورة تصوير كلا الوجهين فى فن السيرة، يقول فى معرض تعليقه على كتاب «مآثر رحيمى» بالرغم من جميع محاسن هذا الكتاب فإنه به عيباً فادحاً هو أنه بالرغم من التسبيح بحمد محاسن خانخانات لم ينقده ثم يقول إن كثيراً من الناس يعتبر اظهار عيوب شخص ما ضيق أفق، فلو صح هذا لكانت التطورات العلمية والذوق الأوربى الحالى زيفاً ونفاقاً[٤].

وفى مقال لشبلى بعنوان: «مناقب عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى»، يقول: «إن فن

---

(١) شبلى: سيرة النعمان: ١/٦٩.

(٢) المرجع السابق: ٩٤.

(٣) شبلى: مقالات شبلى: ١/١٥.

(٤) المرجع السابق: ٤/٦٦ - ٦٨.

السيرة والتراجم قد تطور فى هذا العصر ووصل إلى حد من الرقى لم يبلغه فى الأزمان السالفة، وفى الوقت الذى كتب فيه هذا الكتاب كان المسلمون قد بلغوا بهذا الفن إلى الحد الذى جعلهم يقسموا السيرة إلى أقسام وأبواب تصل إلى أربعة وعشرين باباً فى هذا الكتاب، أما أسلوب كتابة السيرة فى العصر الحديث فهى تركز على نقد البطل لإظهار الحقيقة دون بيان الاعتراض عليها، وفى نفس الوقت الإسهاب فى وصف المحاسن، وقد تعلم كتاب السير عندنا هذه الطريقة من الأوربيين وإن عظم السير عندنا فى الأردية تنتهج هذا المنهج، إلا أن هذه الطريقة جديرة بالاعتراض أكثر من الطريقة القديمة[١]».

وقد اعترف شبلى فى إحدى مقالاته بأن السير والتراجم فى الهند قليلة وفى أضيق الحدود، وبلا منهج فكرى ثابت[٢].

ورغم اعترافنا بجهود شبلى فى تأسيس فن السيرة الأردية ومكانته فى هذا المجال، إلا أننا سوف نشير فى السطور التالية إلى بعض العيوب والانتقادات التى يمكن أن توجه إلى مؤلفاته فى السيرة حتى لا تكون دراستنا لشخصية شبلى هنا دراسة للمناقب والمدح المبرهن، **كما قال شبلى فى نقده لسيرة حيات جاويد**:

أولاً: إن الغرض من سير شبلى هو الجانب الأخلاقى البحت بدرجة يدنو فيها الجانب التصويرى لذا لم تكن الشخصية بشكلها الكامل وصورتها الصحيحة نصب عينى المؤلف، بل ركز على جوانب حياة الأبطال التى تساعد على إحياء القومية وتزكية الأخلاق لهذا لم يستطع تصوير الملامح البشرية كاملة.

ثانياً: تحتل السيرة مكانة ثانوية عند شبلى فلم تكتب جميعها من أجل فن السيرة، بل تتدخل فى سيرها أسباب أخرى، ففى سير الشخصيات التاريخية يمتد اهتمام شبلى بتاريخ العصر وفلسفته التى كلف بها أشد الكلف، وللأشخاص عند شبلى مكانة رفيعة ومقدسة، حيث امتلئ خياله بصور مضيئة لأبطال الإسلام الأول، ولهذا لم تكن لديه رغبة فى كتابة سير المعاصرين له على عكس حالى.

ثالثاً: امتزجت السيرة بالتاريخ عند شبلى بحيث يبدو لنا كاتباً للسيرة ومؤرخاً فى آن.

---

(١) شبلى: مقالات شبلى: ٤ - ٦.

(٢) المرجع السابق: ٣/ ٩١.